أنفاس الزهراء



تأليف: خادم الجناب المحمدي

فضيلة الشيخ محمد الزبير حساني حفظه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم

ورضي الله عن شيخنا الجيلاني وعن أتباعه وورثته إلى يوم الدّين

الحمد لله الذي منّ علينا بالإنتساب إلى الأمّة المحمّديّة، فتلك النعمة العظمى والرحمة الكبرى، وأتمّ علينا الفضل بأهل البيت الكرام، لا سيّما الأزهرين والحسنين، ذوي القدر الشّامخ والمجد الباذخ والمقام الرّاسخ، فصلّ اللّهم من أعماق الوجدان وخالص الايمان على حبيب الكلّ في الكلّ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا، أمّا بعد :

فإنّ الكلام لطيف ومخيف في ذات الوقت، حينما تتكلّم عن سيّدة نساء العالمين، عن من أسرت القلوب بجمالها، وسبت الألباب بجلالها، عن من تمثّل لنا هويّتنا بكلّ مقاييسها، ولكن أُشهد الله ما هو إلّا دافع الحبّ والتّوسل فحسب، ومن في الأمّة يعرف قدر الزّهراء (عليها السّلام) .

فمنذ أن تحوّل الحبّ من قلبي إلى لبّي، وصرت أبحث عن ما يخالجني في الخارج، وأنا أتأسّف عن غياب مولاتي الزهراء من السّاحة العلميّة، فلا دروس ولا مؤلفات ولا مناسبات ..، وكأنّنا لا علاقة لنا بها !!.

والسّبب من وراء ذلك، أنّنا في ترجمتنا لساداتنا، نقصرها على الجانب الإقتدائي فقط، كما نسمعهم كثيرا ما يقولون : نتعرف على سيّدنا رسول الله

ﷺ لنقتدي به ونأتسي، وهل هذا هو علّة المعرفة فقط، وهل علاقتنا بمولانا الحبيب ﷺ موقوفة على الإتّباع، وأين الحبّ والإيمان والتّوقير .. !؟

فمن هنا كان و لا بدّ أن نتعرف على قدر السيّدة الزّهراء (عليها السّلام) لنقدرها حقّ قدرها، ولنحبّها ونواليها، ثمّ لنأتسي بها في سيرتها المباركة .

وعليه فإنّنا نطالب بكتابة السيّر والتّراجم، على هذا المقصد الإيماني العرفاني الوجداني، ولمّا غابت هذه الغاية، إتّسعت هوّة الخلاف في التّفضيل ما بين المقامات والرّتب، حتّى نسمع من بعض أهل العلم هفوات ساذجة، تنبي عن عدم استقراء للنّصوص، ناتج عن عدم تخصّص في المجال .

وموضوعنا هذا ما هو إلّا محاولة لسدّ هذا الفراغ، على حد معرفة الفقير إلى الله ورسوله ﷺ، ولنرسم معالم المعراج لمن أراد أن يرفرف في الأنوار، فنقول وبالله التّوفيق، متوسلين إليه بحبيبه ﷺ وأهل بيته الكرام .

لمحـــــــة تعريفيّة :

إنّها بضعة سيّد الوجود ﷺ، سيّدة نساء العالمين قاطبة، مولاتنا فاطمة الزهراء، البتول الطّاهرة، الصّديقة الكبرى، من استغنت عن التّعريف والتّوصيف بمجدها وسؤددها، فكانت معلومة عند الأولين والآخرين، والعلويين والسّفليين.

ولدت (عليها السّلام) لخمس سنين قبل البعثة النّبويّة المباركة، إبّان بناء قريش للكعبة، وتحكيم سيد الورىﷺ في وضع الحجر الأسعد، وكأنّه في ذلك إشارة إلى أنّه في الوقت الذي بنيت فيه البيت، وتمت لبناتها بوضع الحجر الأسعد، تمّ كذلك وضع لبنة التمام لبيت النبوّة، بميلاد السيّدة البتول عليها السّلام .
وتربّت في حجر أمّها السّيّدة خديجة الكبرى رضي الله عنها، ثمّ يتّمت منها، وبقيت في حضن سيّد الأكوانﷺ يرعاها بالأنوار والأسرار .

ثمّ زفّت إلى حضرة مولانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في ذي القعدة، من سنة اثنتين هجريّا، بعد وقعة بدر المباركة.
فأثمرت له أربعة أزهار، ساداتنا : الحسن، والحسين، وزينب، وأمّ كلثوم عليهم السّلام أجمعين .

ولقد عاشت سبعة وعشرين ربيعا، ولم تلبث بعد الحبيب ﷺ سوى ستة أشهر، وانتقلت إلى الرّفيق الأعلى يوم الإثنين، وتوارت في ضريحها

الشّريف ليلة الثلاثاء، لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة، ومقامها في البقيع المبارك، ومنذ ذلك العهد لا زال يزار.

وأمّا بيتها المبارك، فهو إحدى الحجرات التي نزلت فيها (سورة الحجرات)، لأنّه عندما بنى مولانا الحبيب ﷺ المسجد النبوي، بنى على زاويته الشرقية الجنوبية بيته الشّريف، ثم بنى فيما يليه وإلى جهة الشمال بيتاً يؤوي سيدنا علياً والسّيدة فاطمة عليهما السّلام.

وكانت مساحته على ما ذكره (البتنوني) كالتالي: طوله الجنوبي ٥، ١٤ متراً والشمالي ١٤ متراً وعرضه من جهتي الغرب والشرق حوالي ٥ ،٧ متراً.

وكان مولانا الحبيب ﷺ يتهجّد خلف بيتها (عليها السّلام) من جهة الشمال عند الأسطوانة التي سُمّيت بأسطوانة التهجد، وما بين البيتين الشّريفين خوخة تصل بينهما .

وكان لهذا البيت الفاطمي منفذ إلى المسجد النبوي كما وردت بذلك الأحاديث الكثيرة، وهو الآن داخل الحجرات الشّريفة، وله باب من جهة يسار الحجرة المقدسّة، يسمى "باب فاطمة " عليها السّلام، ويرى منه محرابها وسريرها مغطى برداء أخضر .

لَيْتَنِـي كُنـتُ بالمَدِينَـةِ جـارًا ... أَوْ بِسـاطاً أَوْ نَخْـلَةً أَوْ جِـدارًا

صورة من شمائلها الشّريفة

يا ترى ماذا نقول في وصف بضعة النّبوّة !، ومن ذا الذي يحيط بمظهر الجمال المحمّدي !، وهاهي أم المؤمنين رضي الله عنها تجمل الوصف فتقول : «ما رأيتُ أحداً أشبهُ سَمتاً ودلّاً وهدياً برسول الله ﷺ في قيامِها وقعودِها، من فاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ ».[1]

بل نجد المعصوم ﷺ يشبهها بالحور العين، فيقول : «إبنتي فاطمةٌ، حوراءٌ آدميّةٌ ، لم تَحِضْ ولم تَطمُثْ ».[2]

حُسْنُها لَيسَ كَذَواتِ الخُدُورِ ولَا مِن جِنْسِ قاطِناتِ القُصُورِ

هذِهِ صِبْغَةُ الأَنا بالنُّورِ شَمْسُ حُسْنٍ وأَهْلُها كالبُدُورِ

فَسَلامٌ على بَنِي الزَّهراءِ

ولقد جاء عن سيّدنا أنس بن مالك ﷺ قال : «سألتُ أمّي عن فاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ فقالت كانت كالقمرِ ليلةَ البدرِ، أو الشمسِ إذا خرجَت مِن السّحابِ، بيضاءَ مُشربةً حُمرةً، لها شَعرٌ أسودٌ، مِن أشدِّ النّاس برسولِ الله ﷺ شبهًا، وهي والله كما قال الشاعر:

بيضاءُ تسحبُ مِن قيامٍ شعرَها * * * وتغيبُ فيه وهْوَ جَثلٌ أسحَمُ

فكأنّها فيه نهارٌ مُشرقٌ * * * وكأنّه ليلٌ عليها مُظلِمُ[3]

---

[1] رواه الترمذي والحاكم .

[2] رواه الخطيب والصيداوي .

[3] رواه الحاكم في صحيحه .

و إذا كان ابناها الحسنان (عليهما السّلام) من أشبه النّاس بالجمال النبوي، كما قال سيّدنا علي عليه السلام : الحسنُ أشبهُ برسول اللهِ ﷺ مابين الصّدرِ إلى الرّأسِ، والحسينُ أشبهُ برسول الله ﷺ ما كان أسفلَ مِن ذلك ».[1]

فما بالك إذا بأمّهما عليها السّلام، والتي هي واسطتهما في ذلك، فلهي أشبه بالحبيب ﷺ بكلياته، جمالا وجلالا وكمالا .

وعليه فإنّه من أراد تفصيلا لشمائل السّيّدة العظيمة، فلينظر إلى ما قيل في شمائل أبيها الحبيب ﷺ، فإنّ الابن نسخة من أبيه، كيف لا وقد كان يلقبها بأمّ أبيها، أي لشدّة شبهها به ﷺ، فلم يقل ابنة أبيها، بل قَلَبَ التّشبيه للمبالغة والتّوكيد .

بل ولقد جاء عنه ﷺ أنّه كان يقول : «الولدُ ريحانةٌ، وريحانتيَ : الحسنُ والحسينُ ».[2] ويقول ﷺ : «كيف لا أحبّهما وهما ريحانتاي من الدنيا أشمّهما»[3] وما هاذان الرّيحانتان إلّا من عبيق الزّهراء، فما أحبّهما ﷺ إلّا بحبه لأمّهما، والتي كان إذا دخلت عليه يقبلها ويعتنقها ويستنشق أريجها عليها السّلام .

ويكفيك أنّ اسمها الذي صار علما عليها هو " الزهراء" المشتق من الزُّهرة، التي هي الوضاءة والرّونق والإشراق، فاسمها يدلّ على الجمال والبهاء .

ولقد كنت سألت بعض مشائخنا من أهل الكشف عن صفة مولاتي عليها السّلام، فقال لي : إجمع حسن نساء العالم كلّه في صورة واحدة،

---

[1] رواه الترمذي .

[2] رواه الديلمي والعسكري .

[3] رواه الطبراني والبزار.

وستحصل على جمال محيّا الزهراء عليها السّلام، وهذا قاله لي أكثر من واحد ممن تشرّفوا برؤية الطّاهرة (عليها السّلام) مناما ويقظة .

من أسمائها عليها السّلام

إسم " فاطمة" عليها السّلام

سمّيت السيّدة (فاطمة) بوحي من الله تعالى؛ لأنّه ورد في أحاديث عدّة، وذلك يدلّ على أنّ لهذا الإسم توقيف ربّاني، كما في حديث الحاكم في مستدركه : (إنما سميت فاطمة، لأن الله فطمها وحجبها عن النار) .

واشتقاقها من الفطم وهو (القطع)كما قال ابن دريد، ومنه : فطم الصبي: إذا قطع عنه اللّبن.

وفيه دلالة على معنى الشّفاعة الذي أقامها الله تعالى فيه، فهي بجمالها شفيعة للأمّة من جلال الله تعالى.

إعْجَبْ بها مُرْضِعَةُ الجِنانِ واغْرَبْ بِها فاطِمَةُ النِّيرانِ

إسم "الزّهراء" عليها السّلام

هذا اللّقب من أشهر ألقاب السيّدة عليها السّلام، ولا يعرف أوّل من سماها به، وكأنّه نزل من السّماء، وتلقته الأرض بالقبول والشغف .

قال ابن الأثير رحمه الله: الزهراء : تأنيث الأزهر، وهو النيّر المُشرق من الألوان، ويراد به إشراق نور إيمانها، وإضاءته على إيمان غيرها .[1]

وقال المناوي رحمه الله : سميت بالزهراء لأنها زهرة المصطفى ﷺ.[2]

---

[1] منال الطالب / ابن الأثير : ٥٠٨ .

[2] اتحاف السائل / المناوي : ٢٤

إسم "البتول" عليها السّلام

إسم البتول مشتق من البتل، والبتل في اللغة : هو القطع ..

وقال ثعلب اللّغوي رحمه الله : لقبت فاطمة بنت سيد المرسلين ﷺ بالبتول لانقطاعها عن نساء زمانها وعن نساء الأُمّة، فضلاً وديناً وحسباً وعفافاً، وهي سيدة نساء العالمين، وأُمّ أولاده ﷺ .

وقيل : البتول من النساء : المنقطعة عن الدنيا إلى الله تعالى، وبه لقّبت السيّدة فاطمة (رضي الله عنها) .[1]

وقال ابن منظور رحمه الله : امرأة متبتلة الخلق: أي منقطعة الخلق عن النساء، لها عليهنّ فضل، وقيل : التامة الخلق، وقيل : تبتيل خَلْقها : انفراد كلّ شيء منها بحسنه، لا يتكل بعضه على بعض .[2]

وعن الهروي في (الغريبين) ، قال : سميت فاطمة عليها السلام بتولاً؛ لأنّها بُتلت عن النظير .

إسم "أمّ أَبيها" عليها السّلام

وورد أنّ مولانا الحبيب ﷺ كان يناديها بـ "أم أبيها" كما أخرجه (الطبراني)، ولعل مراده ﷺ بذلك هو مراده من قوله " أنا من الحسين " وهو كالتوكيد في النسبة والشبه، لأن العرب إذا أرادوا أن يشبهوا الابن بأبيه، قالوا هو ابن أبيه، بيد أنّه أراد معنى أعمق وأدقّ من التّشبيه الصّوري، وهو الوراثة المحمّديّة، والخلافة الأحمديّة .

---

[1] *تاج العروس / الزبيدي ٧ : ٣٣٠ . بتل ..*

[2] *النهاية ١ : ٩٤ . بتل ..*

إسم " الصّديقة " عليها السّلام

وسميّت الصّديقة لتحقّقها بمقام القطبيّة، فمقام الولاية الكبرى يسمّى برتبة الصّديقيّة، وهي التي تتوّج بها سيّدنا أبو بكر الصّديقﷺ، وسيّدتنا مريم عليها السّلام، والسيّدة فاطمة (عليها السّلام) أحق بهذا المقام، كما روي عن سيّدنا جعفر الصّادق قدس الله سرّه : «كانت فَاطِمَة تسمى الصديقة »[1] .

ولا غرو فالحديث الشّريف يقول : «عليكم بالصِّدق، فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدق، ويتحرَّى الصِّدق حتى يُكْتَب عند الله صدِّيقًا» وهي كانت أصدق النّاس لهجة، كما قالت أم المؤمنين رَضِيَ الله عَنْها : «رحم الله فَاطِمَة، ما كان أحد بعد النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أصدق لهجة منها »[2] .

إسم "بضعة " النبيﷺ

ففي القاموس : البضعة بفتح الموحدة، وحكي ضمها وكسرها وسكون المعجمة قطعة من اللحم، والمعنى أنها جزء مني، كما أن القطعة جزء من اللحم .

ولم يشهد المعصوم ﷺ لأحد بهذه الخصوصيّة إلّا لها، حينما قال ﷺ : «فاطمةٌ بَضعةٌ مِنّي » .[3]وفي ذلك من الأسرار ما فيه، كما سيأتي ..

---

[1] رواه الحاكم .

[2] رواه الحاكم .

[3] رواه أحمد والحاكم ..

لقطة من أخلاقها عليها السّلام

إنّ شخصيّة جليلة مثل السيّدة فاطمة عليها السّلام، تحتاج إلى التطلّع على تفاصيل حياتها، لتكون قدوة لنساء المسلمين، ولكن وللأسف، فلم يحفظ لنا التّاريخ إلّا نزرا من سيرتها المنيرة .

وعليه فإنّنا سنقف عند بعض الجوانب المشرقة في أخلاقيّات الزّهراء، وما ذكر سيكون دليلا على ما لم يذكر، لنستجمع في أذهاننا صورة كاملة، عن بنت بيت النّبوّة، والتي هي الطّراز الأوّل في التربية المحمّديّة .

سمتها عليها السّلام

ممّا لا ريب فيه أنّ تربيّة النّبوّة الخاصّة، لن تكون ثمرتها عادية، سيّما وأنّ الوحي الشّريف يثبت بأنّها "بضعة منه " فلا شك أنّه لا يقصد مجرّد الوراثة الجسديّة الشّريفة، ولكنّه يعني كذلك وراثة الأخلاق والأحوال والمشاعر النبويّة، فلإن أشبهته في جسمه الشّريف، فإنّ الظاهر عنوان الباطن.

فلهذا تقول أمّ المؤمنين رضي الله عنها: «ما رأيتُ أحداً أشبهُ سَمتاً ودلّاً وهدياً برسول الله ﷺ في قيامِها وقعودِها، من فاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ» وهذا إجمال تحته تفصيلٌ طويل عريض .

وتصفها أمّ المؤمنين رضي الله عنها، مرّة أخرى قائلة : «كنا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعنا عنده، لم يغادر منهن واحدة، فجاءت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها مشية رسول الله ﷺ »[1].

---

[1] رواه البخاري .

وتقول أم المؤمنين رَضِيَ الله عَنْها، مرّة أخرى : «ما رأيت أحدا كان أشبه كلاما، وحديثا من فَاطِمَة برسول الله ﷺ »[1].

فنجد أنّ أمّ المؤمنين رضي الله عنها أكثرت من وصف هذه الشمائل الفاطميّة، وكأنّها استوقفتها واستهوتها، لشدّة شبهها بسيّد الورى ﷺ.

عفّتها عليها السّلام

ولمّا كان أعظم ما في المرأة عفّتها وصونها لحرمتها، وهذا أصل الجمال فيها، مدحها الشّارع الحكيم على هذا فقال ﷺ : «إنّ فاطمةَ أحصنَتْ فَرْجَها، فحرمَها اللهُ وذُرِّيَّتها على النّار»[2].

وقد يتساءل البعض أنّ هذه الفضيلة ليست خاصّة بها، فكيف كانت لها خاصيّة بها ؟

الأمر ليس على ظاهره، ولكنّ الوحي يؤكّد لنا معنى إضافيّا، على أنّها أعظم مَن عفّ نفسه، حتّى أنّها لم يكن لها شهوة ولا ميل للرّجال ولو طرفة عين، فلهذا كانت المثل الأعلى في العفّة .

كما روي عن الإمام عليعليه السلام أنّه كان عند رسول الله ﷺ فقالﷺ : «أي شيء خير للمرأة ؟ فسكتوا فلما رجعت قلت لفاطمة : أي شيء خير للنساء؟ قالت : ألّا يرينَ الرجال، ولا يراهنّ الرجال، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال : إنما فاطمة بضعة مني ـ عليها السّلام ـ »[3].

[1] رواه الحاكم وابن خزيمة .

[2] الحاكم .

[3] البزار والحاكم .

وأعجب من هذا ما روي «أنّ السيّدة فاطمة رضي الله عنها لما حضرتها الوفاة أمرت سيّدنا عليا فوضع لها غسلا، فاغتسلت وتطهرت، ودعت بثياب أكفانها فأتيت بثياب غلاظ خشن فلبستها، ومست من الحنوط ثم أمرته أن لا تكشف إذا قبضت، وأن تدرج كما هي في ثيابها »[1] .

وفي رواية أخرى عَنْ أُمِّ سَلْمَة رضي الله عنها قَالَتِ: «اشْتَكَتْ فَاطِمَةُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَكْوَاهَا الَّتِى قُبِضَتْ فِيهِ، فَكُنْتُ أُمَرِّضُهَا، فَأَصْبَحَتْ يَوْمًا كَأَمْثَلِ مَا رَأَيْتُهَا فِى شَكْوَاهَا تِلْكَ، قَالَتْ : وَخَرَجَ عَلِيٌّ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَتْ: يَا أُمَّهِ اسْكُبِى لِى غُسْلاً، فَسَكَبْتُ لَهَا غُسْلاً فَاغْتَسَلَتْ كَأَحْسَنِ مَا رَأَيْتُهَا تَغْتَسِلُ، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أُمَّهْ أَعْطِينِى ثِيَابِىَ الْجُدُة، فَأَعْطَيْتُهَا فَلَبِسَتْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أُمَّهْ قَدِّمِى لِى فِرَاشِى وَسَطَ الْبَيْتِ، فَفَعَلْتُ وَاضْطَجَعَتْ وَاسْتَقْبَلَتِ الْقِبْلَةَ وَجَعَلَتْ يَدَهَا تَحْتَ خَدِّهَا، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أُمَّهْ إِنِّى مَقْبُوضَةٌ الآنَ، وَقَدْ تَطَهَّرْتُ فَلاَ يَكْشِفُنِى أَحَدٌ، فَقُبِضَتْ مَكَانَهَا، قَالَتْ: فَجَاءَ عَلِيٌّ فَأَخْبَرْتُهُ »[2] .

ولقد تعدّت عفّتها حتّى بعد إنتقالها، كما روي عن أم جعفر : أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : يا أسماء ـ بنت عميس ـ إني قد استقبحت ما يصنع بالنّساء أن يطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت أسماء: آبنة رسول الله ﷺ ألا أريك شيئا رأيته بالحبشة، فدعت بجرائد رطبة فحنتها، ثم طرحت عليها ثوبا. فقالت فاطمة : ما أحسن هذا وأجمله تعرف به المرأة من الرجل.

بل ولقد تعدّت عفّتها هذه الدّار إلى الدّار الآخرة، حيث يقول سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ : «إذا كان يومُ القيامةِ نادى منادٍ من بُطْنان العرشِ، يا أهلَ

---

[1] الحاكم في مستدركه .

[2] رواه أحمد .

الجمعِ نَكِّسُوا رءوسَكم، وغُضُّوا أبصارَكم، حتّى تمرَّ فاطمةُ بنتُ محمدٍ ﷺ فتمرَّ مع سبعين ألفِ جاريةٍ من الحورِ العينِ كمرِّ البرقِ» .[1]

صدقها عليها السّلام

ومن أسمى الأخلاق والتي تفتقد حتّى في الرّجال، خلق الصّدق، وكانت السيّدة البتول (عليها السّلام) هي أمّ الصّدق، حتّى سميت بالصّديقة، كما روي عن سيّدنا جعفر الصّادق قدس الله سرّه : «كانت فَاطِمَة تسمى الصديقة » .[2]

ولا غرو فالحديث الشّريف يقول : «عليكم بالصِّدق، فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجل يصدق، ويتحرَّى الصِّدق حتى يُكْتَب عند الله صدِّيقًا» .

فلا جرم أن هداها صدقها إلى البر فكانت من الأبرار، ثمّ ترقّت عن هذا إلى درجة المقربين، فكانت صديقة هذه الأمّة .

وهاهي شهادة أم المؤمنين فيها، قالت رَضِيَ الله عَنْها : «رحم الله فَاطِمَة، ما كان أحد بعد النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أصدق لهجة منها » .[3].

وروي عنها رَضِيَ الله عَنْها، أنّها قالت : «ما رأيت أحدا قط هو أصدق لهجة من فَاطِمَة غير أبيها، قال : وكان بينهما شيء ، فقالت عَائِشَة : سلها يا رسول الله ﷺ، فإنها لا تكذب» .[4]

---

[1] رواه الطبراني والحاكم وصححه .

[2] رواه الحاكم .

[3] رواه الحاكم .

[4] رواه الحاكم .

حلمها ومروءتها

وباستقراء شمائل السيّدة الزهراء عليها السّلام، يتضح لنا أنّها كانت على جانب من المروءة لم يتفق لأحد من النساء، بل ولا الرّجال حاشا ساداتنا الأنبياء عليهم السّلام .

وتأمل كيف تصفها أم المؤمنين رَضِيَ الله عَنْها : «ما رأيت أحدا كان أشبه كلاما، وحديثا من فَاطِمَة برسول الله ﷺ وكانت إذا دخلت عليه رحب بها، وقام إليها فأخذ بيدها وقبل يدها، وأجلسها في مجلسه، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل عليها رحبت، وقامت وأخذت بيده فقبلته، فدخلت عليه في مرضه الذي توفي فيه، فرحب بها، وقبّلها، وأسر إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا، فإذا هي منهن، بينا هي تبكي إذ هي تضحك، فسألتها فقالت: إني إذا لبذرة. فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها، فقالت : أسر إلي وأَخْبَرَنِي أنه ميت، فبكيت، ثم أسر إلي وأَخْبَرَنِي أني أول أهله لحوقًا به» [1] .

وفي رواية - «دخلت فاطمة فأكبّت عليه فقبلته، ثم رفعت رأسها فبكت، ثم أكبت عليه ثم رفعت رأسها فضحكت، فقلت: إن كنت لأظن أن هذه من أعقل نسائنا، فإذا هي من النساء ».

فلك أن تتوقف في هذه الحادثة التاريخيّة مع ثلاثة ملاحظ، أوّلا : حفاوة سيّد الوجود ﷺ بها، وما ذلك إلّا لمكانتها وعظمة شخصيتها .

---

[1] رواه ابن خزيمة في صحيحه .

ثانيا : شهادة أمّ المؤمنين وهي من هي، حينما شهدت للسيّدة الزهراء بفخامة القدر، ورجاحة العقل .

ثالثا : انتخاب الحضرة النبويّة بالإسرار لها، وكتمان السيّدة الزهراء (عليها السّلام) للسّر النبوي .

كرمها وجودها

وأمّا عن سخاءها بمال الدّنيا الزّائف، فهي أعظم من أن تمدح أو تحمد عليه، وهي التي تتفضّل علينا كلّ يوم بالأنوار والأسرار، فالأمّة كلّها عيال على بركاتها ونفحاتها .

ويكفيك في كرمها الحسي، قصة نزول آية : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) فإنّها نزلت فيها وفي زوجها الكريم عليهما السّلام .

فقد روي عَنِ سيّدنا ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَرِضَا فَعَادَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أُنَاسٍ مَعَهُ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْحَسَنِ لَوْ نَذَرْتَ عَلَى وَلَدِكَ، فَنَذَرَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَفِضَّةُ جَارِيَةٌ لَهُمَا، إِنْ شَفَاهُمَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَصُومُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَشُفِيَا وَمَا مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَاسْتَقْرَضَا ثَلَاثَةَ أَصْوُعٍ مِنْ شَعِيرٍ فَطَحَنَتْ فَاطِمَةُ صَاعًا وَاخْتَبَزَتْهُ وَوَضَعُوهَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لِيُفْطِرُوا، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ سَائِلٌ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ، مِسْكِينٌ مِنْ مَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ أَطْعِمُونِي أَطْعَمَكُمُ اللَّهُ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ فَآثَرُوهُ وَبَاتُوا وَلَمْ يَذُوقُوا إِلَّا الْمَاءَ وَأَصْبَحُوا صَائِمِينَ، فَلَمَّا أَمْسَوْا وَوَضَعُوا الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَقَفَ عَلَيْهِمْ يَتِيمٌ

فَآثَرُوهُ وَجَاءَهُمْ أَسِيرٌ فِي الثَّالِثَةِ، فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَخَذَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَدَخَلُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، فلما أبصرهم وَهُمْ يَرْتَعِشُونَ كَالْفِرَاخِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ قَالَ: مَا أَشَدَّ مَا يَسُوءُنِي مَا أَرَى بِكُمْ وَقَامَ فَانْطَلَقَ مَعَهُمْ فَرَأَى فَاطِمَةَ فِي مِحْرَابِهَا قَدِ الْتَصَقَ بَطْنُهَا بِظَهْرِهَا وَغَارَتْ عَيْنَاهَا فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: خُذْهَا يَا رسول الله ﷺ هَنَّاكَ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ فَأَقْرَأَهَا السُّورَةَ»[1].

أيُّ أَخْلاقٍ أيُّما إحْسانِ   مِن رَبِيعٍ تَفُوحُ أمْ مِن جِنانِ
كلاَّ لَيسَ مِن نَشْأةِ الأكْوانِ   لَيْسَتِ الّا نَسائِمُ الكُثْبانِ
فَتَنَشَّقْ كَي تَتَّصِلْ بِالبَتُولِ

جُودُهُم يَطْفُو فَوقَ بِرِّ البُحُورِ   هذا دُرٌّ وذاكَ فَيضُ النُّورِ
ياتُرى مَن يَجُودُ خَلْفَ السُّتُورِ   مَن في إمْكانِنا مُدِيرُ الأمُورِ
مَن هُوَ الجُودُ هُوَ آلُ البَتُولِ

نبذة من أحوالها عليها السّلام

إنّ الأحوال الباطنة هي معيار التفاضل عند أهل الله تعالى، فإن أردنا أن نقف على سرّ تفوّق السيّدة (عليها السّلام) في المقام على من سواها من نساء العالمين، فلأنّها كانت أتقاهنّ وأيقنهنّ بالله تبارك، وأشدّهنّ تعلّقا بأبيها الحبيب ﷺ .

[1] تفسير الفخر الرّازي، والواحدي .. بعدّة روايات .

ولكن وللأسف لم يروى لنا الكافي من أحوال سيّدة العالمين، ولكن إذا عرفنا أنّ مقامها كان بتلك العزّة والرّفعة، سنستنتج بأنّ أحوالها الباطنيّة كانت على قدسيّة قطيعة النّظير .

وممّا يجب التّنبيه إليه هنا، أنّ الأحوال والمقامات القلبية، من شأنها الإخفاء والتستّر، وهذا سبب آخر من أسباب قلّة المصادر، وهذه نماذج منها :

نسكها عليها السّلام

وأمّا عن شؤون عبادتها لله تعالى، فهذا الذي قصّرت فيه الروايات، فلم تعطى هذه السيّدة حقّها من الإهتمام في السيّر، ولكنّ مقامها ينبينا عن تفاصيل عبوديتها لربّ العالمين .

وكيف لا وإنّها نشأت في حجر إمام الحضرة ﷺ، وهذا سيّدنا أبو الحمراء ﷺ يصف لنا المسلك فيقول : رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ ، فرأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي وفاطمة الزهراء، فقال : "السلام عليكم أهل البيت" " الصلاة الصلاة" (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) »[1] .

ولمّا سُئل الإمام الصادق قدس الله سرّه، عن السيّدة عليها السلام، لِمَ سمّيت الزهراء؟ فقال قدّس الله سرّه : « لأنّها كانت إذا قامت في محرابها زهر نورها لأهل السماء ، كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض» .

---

[1] أحمد وابن أبي شيبة .

وروي عن الامام الحسن عليه السلام أنه قال: رأيتُ أمي فاطمة قائمةً في محرابها ليلة الجمعة، فلم تزل راكعة ساجدةً حتى انفلق عمودُ الصبح.. سمعتُها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتُسمّيهم وتُكثر الدعاءَ لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء، فقلت: يا أمّاه! لَمْ تدعي لنفسِكِ كما تدعين لغيرِكِ، قالتْ: يا بُنيّ، الجار، قبل الدار.

وممّا روي عنها في هذا الشّأن، أنها كانت تقول في ساعة الاستجابة يوم الجمعة أنّها تضيفت الشمس للغروب، قال وكانت فَاطِمَة رَضِىَ الله عَنْهَا تأمر وصيفًا لها فتقول : اصعدي على الظراب، فإذا رأيت الشمس تدلى نصفها للغرب فآذنيني، فتصعد، فإذا هي تدلت للغروب آذنتها فتقوم فَاطِمَة فتذكر الله وتصلي على النبي ﷺ، وتدعو حتى تغرب[1].

وروي عن سيّدنا جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده[2].

تعلقها بالحبيب ﷺ

ولقد كان للسيّدة فاطمة عليها السّلام، شجون وفنون في الشّغف بأبيها الحبيب ﷺ، ليس حبّ أبوّة فحسب، بل حبّ عبوديّة وإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، فمن ذلك ما روي عن سيّدنا عبد الله بن الحارث ﷺ، قال : «مكثت فاطمة بعد النبي ﷺ ستة أشهر وهي تذوب» (شغفا به ﷺ)، ومثل ذلك عن سيّدنا ابن بريدة ﷺ، قال : «كمدت فاطمة على أبيها سبعين من يوم وليلة ».

[1] رواه الحاكم النيسابوري

[2] رواه الحاكم النيسابوري

ومن ذلك ما روي عن سيّدنا أبي ثعلبة الخُشَني ﷺ قال: «قدم رسول الله ﷺ من غَزاة له مرة فأتى فاطمة فبدأ بها، فاستقبلته على باب البيت فجعلت تقبل وجهه و فاه وعينيه وتبكي، فقال لها رسول الله ﷺ «ما يبكيك؟» قالت: أراك يا أبتي ﷺ قد شحب لونك، واخلولقت ثيابك .. الحديث »[1].

وعن أبي جعفر ﷺ، قال : « ما رئيت فاطمة ضاحكة بعد رسول الله ﷺ إلا يوما أفترت بطرف نابها، قال : ومكثت بعده ستة أشهر » .

وروى الحاكم بسنده عن سيّدنا موسى الكاظم عن آبائه الكرام : «أنّ السّيّدة فاطمةَ عليها السّلام، لمّا انتقلَ رسولُ الله ﷺ كانت تقولُ : وا أبتاه من ربه ما أدناه، وا أبتاه جنان الخلد مأواه، وا أبتاه ربه يكرمه إذا أتاه، وا أبتاه الرّب ورسله يسلم عليه حين يلقاه .

ولمّا فرغوا قالت فاطمة: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب؟ » .

وفي سنن الدارمي : حين حدث ثابت البناني بهذا الحديث بكى حتى رأيت أضلاعه تضطرب، وقال ثابت: حين حدث به أنس بكى .

وعن سيّدنا أنس بن مالك ﷺ قال : «جاءت فَاطِمَة ومعها الحسن والحسين إلى النبي ﷺ في المرض الذي قبض فيه، فأكبت عليه فَاطِمَة وألصقت صدرها بصدره وجعلت تبكي فقال النبي ﷺ : مه يا فَاطِمَة ونهاها

[1] الطبراني وأبو نُعيم والحاكم

عن البكاء فانطلقت إلى البيت فقال النبي ﷺ وهو يستعبر الدّموع، اللهم أهل بيتي وأنا مستودعهم كلّ مؤمن ثلاث مرات»[١].

وقالت عليها السّلام، ترثي أباها الكريم ﷺ، كما في "سيرة اليعمري" :

اِغــبَرَّ آفــاقُ السَــماءِ وَكُــوِّرَت	شَمـسُ النَهـارِ وَأَظـلَمُ العَصرـاتِ
فَـالأَرضُ مِـن بَعـدَ النَّـبِيِّ كَئيبَـةً	أَسَــفاً عَلَيــهِ كَثـيرَةُ الرَجفــانِ
فَليَبكِــهِ شَرقُ الــبِلادِ وَغَربُهــا	وَليَبكِـــهِ مَــــضَرُ وَكُلُّ يَــماني
وَليَبكِــهِ الطَـودُ المُعظِـمِ جَـوُّهُ	وَالبَيــتِ ذو الأَســتارِ وَالأَركانِ
يا خـاتِمَ الرُسـلِ المُبـارَكِ ضَـوؤُهُ	صَــلى عَلَيــكَ مَــنزِلِ الفُرقــانِ

وقال الإمام علي عليه السلام : « لما دفن رسول الله ﷺ جاءت فاطمة فوقفت على قبره، وأخذت قبضة من تراب القبر واستنشقتها، وأنشأت تقول :

مــاذا عَـلَى مـن شَمَّ تُربَـةَ أَحـمـدٍ	أَلّا يَشُــمَ مَـدى الزَمـانِ غَواليـا
صُـبَّت عَـلَيَّ مَصـائِبٌ لَـو أَنَّهـا	صُـبَّت عَـلى الأَيّامِ عُـدن لَياليـا

ومن تعلّقها عليها السّلام بالحبيب ﷺ، أنّها جاءت بكسرة خبز له ﷺ فقال : «ما هذه الكسرة قالت قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال أما إنه أول طعام دخل بطن أبيك منذ ثلاثة أيام »[٢].

ومن نصرتها له ﷺ ما جاء في الحديث الصحيح عن سيّدنا ابن مسعود قال: كنا مع رسول الله ﷺ نصلي في ظل الكعبة وناس من قريش وأبو جهل قد نحروا جزورا في ناحية مكة فبعثوا فجاءوا بسلاها وطرحوه بين

---

[١] رواه الحاكم في مستدركه .

[٢] المصدر نفسه .

كتفيه وهو ساجد فجاءت فاطمة فطرحته عنه، فلما انصرف قال: «اللهم عليك بقريش » .

وفي رواية قَالَ سيّدنا ابْنُ مَسْعُودٍ: «وَأَنَا قَائِمٌ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَكَلَّمَ لَيْسَ عِنْدِي عَشِيرَةٌ تَمْنَعُنِي؛ فَأَنَا أَرْهَبُ إِذْ سَمِعَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ فَأَقْبَلَتْ حَتَّى أَلْقَتْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهَا ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ قُرَيْشًا فَشَتَمَتْهُمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَيْهَا شَيْئًا ».

زهدها عليها السّلام

ومّما روي من زهدها عليها السّلام، عن عون بن مُحَمَّد، عن أمه عن جدتها قالت : «جهزت جدتك إلى جدك علي عليهما السَّلام، وما كان حشو وسادتهما وفراشهما إلا ليفا، ولقد أولم لفَاطِمَة فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته، رهن درعه عند يهودي بشطر شعير »[1] .

ومنها ما روى الإمام أحمد : « أن بلالا أبطأ عن صلاة الصبح فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما حبسك ؟ قال : مررت بفاطمة ، وهي تطحن والصبي يبكي فقلت : إن شئت كفيتك الرحا، وإن شئت كفيتك الصبي، فقالت أنا أرفق بإبني منك، فذاك الذي حبسني عنك ».

وكما روي عن سيّدنا علي عليه السلام إذ يقول لها (عليها السّلام) : «إيتي رسول الله ﷺ فسليه أن يخدمك خادما، فقد شق عليك الخدمة، فجاءته، فلم تجده في البيت، قال : فانقلبت ، فأخبرته عائِشَة أن فَاطِمَة جاءت تبغيك، فلم

[1] رواه الحاكم النيسابوري

يضع رداءه حتى جاءها، وقد دخلت هي، وعلي في لحاف، فلما رآه علي استحيا منه، فكأنهما أرادا أن يتنحيا منه ، فقال لهما رسول الله ﷺ : كما أنتما. قال : فأدخل رجليه بينهما في اللحاف، كأنه يدفئهما وكانت غداة خضرة، فلما ذكرت له فَاطِمَة شأن الخادم قال : الخادم أحب إليك ؟ أو خير منه ؟ فقالت فَاطِمَة : خير منه، قال : إذا أردت أن ترقدي فسبحي ثلاثًا وثلاثين، وكبري أربعًا وثلاثين، واحمدي ثلاثًا وثلاثين فقالت: رضيت عن الله ورسوله مرتين »[1] .

وفي رواية الحاكم .. قال علي بن أبي طالب : «يا ابن أعبد ألا أعلمك، ألا أخبرك عني وعن فَاطِمَة بنت رسول الله ﷺ.. وإنما رحت الرحا بيدها حتى أثر الرحا في يدها واستقت القربة حتى أثرت القربة بنحرها وقمّت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى دنست ثيابها فقدم على رسول الله ﷺ سبي أو رقيق، فقلت لها لو أتيت رسول الله ﷺ فسألته خادمًا ».

ويقول سيّدي أبو العباس ابن مسروق: المؤمن يتقوى بذكر الله تعالى كما وقع لسيدتنا فاطمة رضي الله عنه، حين طلبت من النبي ﷺ خادماً ليطحن معها فعلمها النبي ﷺ التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقال: هن لك أحسن من خادم وأما المنافق فلا يتقوى إلا بالطعام والشراب[2] .

ومنه ما روي عن الإمام علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ زوجه فَاطِمَة، ثم بعث معها بخميلة ووسادة من أدم حشوها ليف، وسقاء، ورحا بئر ..

---

[1] صحيح البخاري

[2] الطبقات الكبرى للشعراني

فذكر الحديث بنحوه، وزاد فيه : وقد دخلا في قطيفتهما، فإذا غطيا رؤوسهما انكشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما انكشفت رؤوسهما »[١].

ومنه ما روي عن سيّدنا علي عليه السلام قال : «تزوجت فَاطِمَة وما لنا إلاّ إهاب كبش ننام على ناحيته، وتعجن فاطمة على ناحية ».

ومنه ما روي عن سيّدنا ثوبان رضي الله عنه، قال : «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة وأنا معه، وقد أخذت من عنقها سلسلة من ذهب، فقالت : هذه أهداها لي أبو حسن، فقال : يا فاطمة، أيسرك أن يقول الناس : هذه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يدها سلسلة من نار، ثم خرج، فاشترت بالسلسلة غلاما، فأعتقته فقال النبي صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي نجّى فاطمة من النار»[٢] .

ومنه ما روي عن سيّدنا ثوبان رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة، وأول من يدخل عليها إذا قدم فاطمة، فقدم من غزاةٍ له وقد علقت مسحاً أو ستراً على بابها، وحلت الحسن والحسين قُلْبَيْنِ من فضةٍ، فقدم فلم يدخل، فظننت أن ما منعه أن يدخل ما رأى، فهتكت الستر وفككت القلبين عن الصَّبيين وقطعته بينهما، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان، فأخذه منهما وقال: "ياثوبان، اذهب بهذا إلى آل فلانٍ" أهل بيت بالمدينة "إن هؤلاء أهل بيتي أكره أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، يا ثوبان، اشتر لفاطمة قلادةً من عصبٍ وسوارين من عاج»[٣].

---

[١] رواه الحاكم النيسابوري

[٢] رواه أبو داوود .

[٣] أبو داود وابن حبان .

وفي رواية (ابن حبان) فجاء حتى دخل عليها فاعتنقها، وقال هكذا كوني فداك أبي وأمي ».

ومنه ما روي عن سيّدنا جابر ﷺ قال : «دخل رسول الله ﷺ على فَاطِمَة وهي تطحن بالرحى فلما نظر إليها بكى وقال يا فَاطِمَة تنقلي من لذة الدنيا لنعيم الجنة غدًا » .

وروى ابن حبان في صحيحه: « أنّ النبي ﷺ خرج وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى دار أبي أيوب الأنصاري ـ فذكر الحديث بطوله ـ إلى أن قال: فأخذ رسول الله ﷺ شيئا من لحم الجدي فوضعه في رغيف وقال: يا أبا أيوب أبلغ هذا فاطمة فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام فذهب به أبو أيوب إلى فاطمة ».

قال: قد فعلت، فداها أبوها- ثلاث مرات- ليست الدنيا من محمد ﷺ ولا من آل محمد ﷺ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ».[1]

وجاء في السير : قدم رسول الله ﷺ من غزوة فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى سترا معلقا في بيتها، فقال: إن سرّك أن يسترك الله يوم القيامة فأعطينيه، فأعطته، فخرج به فشقه لكل إنسان ذراعين في ذراع.

ولا عجب من هذه الأحوال عند سيّدة النّساء والرّجال، فإنّها بضعة النّبوّة، ونسخة الرّسالة، وما خفي أجل وأعظم .

[1] ابن النجار

صبرها عليها السّلام

وكفى بزهدها في الدنيا صبرا، فقد ربّاها المعصوم ﷺ وسلك بها مسالك اليقين من أوّل حياتها عليها السّلام، ولقد رآها الحبيب ﷺ ذات مرّة وعليها كساء من أوبار الإبل وهي تطحن فبكى وقال : « يا فاطمة اصبري على مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غدا»[1] .

وتحكي لنا أمّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت : «كنا أزواج النبي ﷺ اجتمعنا عنده، فجاءت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها، رحب بها، قال : مرحبا بابنتي. ثم أقعدها عن يمينه، ثم سارها ، فبكت؛ ثم سارها الثانية ، فضحكت .. فذكرت الحديث المشهور ومنه : فقالت فاطمة : في المرة الأولى حدثني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة ، وأنه عارضني العام في هذه السنة مرتين ، وإني لا أحسب ذلك إلا عند اقتراب أجلي ، فاتقي الله واصبري، فنعم السلف لك أنا، فبكيت، فلما رأى جزعي، قال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، أو سيدة نساء هذه الأمة ؟ قالت : فضحكت »[2].

وكأنّه ﷺ رتّب سيادتها على شدّة مصابها وعظم صبرها، لأنّه قال ﷺ في الحديث الصّحيح : «من أصابته مصيبة فليتذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب»[3] .

[1] الحاكم وابن النجار وابن مردويه .

[2] رواه البخاري .

[3] رواه ابن سعد .

ولمّا انتقل الحبيب ﷺ إلى الرّفيق الأعلى، اشتدّ عليها المصاب، فكانت كما قال سيّدنا ابن بريدة ﷺ : كمدت فاطمة على أبيها سبعين من يوم وليلة .

مقامها العظيم عليها السّلام

ولقد اشتهر عند جمهور أهل السنّة والجماعة، ورجح بالدّليل النّقلي والعقلي والكشفي، أنّ أفضل نساء العالمين على الإطلاق هي السيّدة فاطمة عليها السّلام، ولم يماري في هذا إلّا النّواصب والخوارج.

وصرح بأفضليتها على سائر النساء حتى السيدة مريم (عليها السّلام) كثير من العلماء المحققين منهم : التقي السّبكي، والجلال السيوطي، والبدر الزركشي، والتقي المقريزي .

وقال إمامنا مالك رضي الله عنه : لا أفضل على بضعة من النبي صلى الله عليه واله وسلم أحدا[1] .

ولمّا سئل الحافظ ابن أبي داوود رحمه الله عن الترجيح في أفضليّة النساء، قال : إن رسول الله ﷺ قال :" فاطمة بضعة مني " ولا أعدل ببضعة رسول الله ﷺ أحدا.

وذكر الإمام علم الدين العراقي رحمه الله " شارح المهذب" أن السيّدة فاطمة وأخاها إبراهيم عليهما السّلام، أفضل من الخلفاء باتفاق .

وصرح بأفضلية السيدة فاطمة على جميع الصحابة حتّى الشيخين، الشمس العلقمي .

[1] الحاوي للفتاوي للإمام السيوطي .

قال الحافظ المناوي : أما نساء هذه الأمة فلا ريب في تفضيلها عليهن مطلقا، بل صرح غير واحد أنها وأخوها إبراهيم أفضل من جميع الصحابة حتى الخلفاء الأربعة.

ويقول الإمام السبكي رحمه الله : الذي نختاره وندين الله به: أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة، ولم يخف عنّا الخلاف في ذلك، ولكن إذا جاء نهر الله بطل نهر العقل .

وقال الشيخ شهاب الدين بن حجر الهيتمي: ولوضوح ما قاله السبكي تبعه عليه المحققون..

ومن حكى الإجماع الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ فقال : فاطمة أفضل من خديجة وعائشة بالإجماع، ثم خديجة ثم عائشة .[1]

وقال في موضع آخر ـ رحمه الله ـ : هي مقدمة على غيرها من نساء عصرها، ومن بعدهن مطلقا.

معرض الأدلّة

ولكيلا يكون الكلام عفويّا، سنعرض هنا لبعض الإستدلالات النّقليّة والعقليّة والكشفيّة، لتتّضح هذه الحقيقة علميّا :

الدّليل النّقلي:

قال سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ : يا فاطمة أبْشري، فإنّ اللهَ اصطفاكِ على نساءِ العالمينَ، وعلى نساءِ الإسلام وهو خيرُ دينٍ» .[2]

---

[1] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح

[2] رواه الخطيب والحاكم .

وقال سيدنا رسول الله ﷺ : « أربعُ نسوةٍ ساداتُ عالَمِهن : مريمُ بنتُ عِمْرَانَ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ﷺ، وأفضلُهن عالماً فاطمةُ ».[1]

ويقول مولانا رسول الله ﷺ : يا فاطمةُ ألا تَرضينَ أن تكوني سيّدةَ نساءِ العالمين، وسيّدةَ نساءِ هذه الأمّةِ، وسيّدة نساءِ المؤمنين »[2].

وعن سيّدنا محمد بن أسامة ، عن أبيه : سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الناس أحب إليك ؟ قال : فاطمة[3] .

وعن أمّنا عائشة رضي الله عنها : قالت : ما رأيتُ قطُّ أحداً، أفضلَ مِن فاطمةَ عليها السلام غير أبيها.[4]

وسُئِلَت أمُّنا عائشة رضي الله عنها : أيُّ النّاسِ كانَ أحبَّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ؟ قالت : فاطمةُ . فقيل ومِن الرجال ؟ قالت : زوجُها، إن كانَ ماعلمتُ صوّاماً قوّاماً»[5] .

ويقول لها مولانا رسول الله ﷺ : يا بنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟ قال: تقول: يا ليتها فأين مريم ابنة عمران ؟ قال - صلى الله عليه وسلم -: تلك سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك »[6] .

---

[1] رواه البيهقي وابن عساكر.

[2] رواه الحاكم في مستدركه على الصحيحين .

[3] رواه ابن اسحاق

[4] الطبراني بإسناد صحيح على شرط الشيخين

[5] رواه الترمذي والحاكم .

[6] رواه ابن منيع والحاكم .

وعن سيّدنا عثمان بن بشير قال: استأذن أبو بكرٍ على رسول الله ﷺ، فسَمِع صوتَ عائشة عالياً وهي تقول: واللهِ لقد عَرَفتُ أنّ عليّاً وفاطمةَ أحَبُّ إليك مِن أبي ومنّي! فدخل أبو بكر ﵁ فأهوى إلى عائشة قائلاً: يا بنتَ فُلانة! ألاّ أَسمعُكِ ترفعين صوتَكِ على رسول الله ﷺ»[1].

وعن سيّدنا عبد الله بن عباس رَضِيَ الله عَنْهما أنه قال : كنا ذات يوم عند رسول الله ﷺ إذ قال : ألا أخبركم بخير الناس أباً وأماً ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : الحسن والحسين ، أبوهما علي بن أبي طالب، وأمهما فَاطِمَة بنت رسول الله ﷺ، سيدة نساء العالمين »[2].

وعن أبي هاشم، عن أمه، وكانت خادمة رسول الله ﷺ، قالت : جاء رسول الله ﷺ وعلي وفَاطِمَة قائمان قد أضحت عليهم الشمس ، وعليه كساء خيبري ، فمده دونهما ثم قال : أحب حاضر وباد إلي[3].

وعن سيّدنا عامر بن واثلة، قال : كنت على الباب يوم الشورى، وعلي في البيت فسمعته يقول: أنشدكم الله، أمنكم أحد له زوجة مثل زوجتي فَاطِمَة بنت رسول الله ﷺ، سيدة نساء هذه الأمة، غيري ؟ قالوا : لا .[4]

وعن سيّدنا ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهما قال : نظر علي رَضِيَ الله عَنْه في وجوه الناس ، فقال : إني لأخو رسول الله ﷺ ووزيره ، ولقد علمتم أني

---

[1] رواه النسائي والحاكم .

[2] الحاكم .

[3] الحاكم .

[4] رواه الحاكم النيسابوري

أولكم إيمانا بالله وبرسوله ، وأبو ولديه ، وزوج ابنته سيدة ولده ، وسيدة نساء العالمين ، وسيدة نساء أهل الجنة .[1]

ويقول سيّدنا ومولانا رسول الله ﷺ : «خيرُ رجالِكم : عليٌّ ، وخيرُ شبابِكم : الحسنُ والحسينُ ، وخيرُ نسائِكم : فاطمةُ »[2].

الدّليل العقلي:

التّرجيح على نساء الأمّة

نسمع من ينزع إلى تفضيل بعض أمّهات المؤمنين على السيّدة الزّهراء (عليها السّلام) بمحض العصبيّة والهوى، ودعوى المخالفة للرّوافض، ولكنّ الحق لا يدرء لتلبّس المبطلين به، وإنّنا باستقراء النّصوص الماضيّة، سنخلص إلى ما صادق عليه الجمهور :

- ففي قوله ﷺ : «سيدة نساء هذه الأمة» دليل صحيح صريح، ولا اجتهاد مع النّص، ويدخل في هذا أمّهات المؤمنين (رضي الله عنهن) .
- وفي قوله ﷺ : «سيدة نساء أهل الجنّة» يدخل فيه نساء كلّ الأمم، لأنهنّ مجتمعات في جنّة واحدة، والتفاضل بينهنّ آنذاك، نتيجة للتّفاضل هنا، فهي من باب أولى سيّدة نساء الدّنيا .
- أنّها (عليها السّلام) بضعة الحبيب ﷺ، وهذه الخاصيّة لا تشاركها فيها سواها من الكاملات .

---

[1] رواه الحاكم النيسابوري

[2] رواه أبو داوود وابن ماجة .

التّرجيح على نساء العالمين

ولقد نازع بعض أهل العلم في أفضليّة الزهراء (عليها السّلام) على السيّدة مريم (عليها السّلام) محتجّا بآية (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) والمناقشة ستكون بوجهين :

١)نبدأ أوّلا بنقد حجّتهم المبنيّة على الآية، فقد قال أهل التّفسير بأنّ العالمين في الآية لا تفيد الإطلاق، بل نساء عالمها فقط، ويقيّد ذلك حديث «تلك سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك » ويؤيّد هذا قوله تعالى في قوم سيّدنا لوط: (أتأتون الذكران من العالمين) وهم ذكران قريتهم فقط .

٢)فإذا بطلت حجّة المعارض، فسنثبت إذا أفضليّة السيّدة الزّهراء (عليها السّلام) من عدّة جهات :

- قوله ﷺ : « أربعُ نسوةٍ ساداتُ عالَمِهن: مريمُ بنتُ عِمْرَانَ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ ﷺ، وأفضلُهن عالماً فاطمةُ ».[1] وهذا الحديث وأمثاله معه، صريحو الدّلالة .
- إن كانت أفضليّة الصّديقة مريم (عليها السّلام) لأجل ابنها المسيح (عليه السّلام) فإنّ أفضليّة الزهراء (عليها السّلام) لأجل سيّد الوجود ﷺ وهذا أكبر وأبرك .

[1] رواه البيهقي وابن عساكر.

- إن كانت فضيلة الصّديقة (عليها السّلام) لأجل أمّة بني إسرائيل، فانتماء الزّهراء (عليها السّلام) للأمّة المحمّديّة، وهذا أمجد وأقدس .
- ويحسم النّقاش حديث : «سيدة نساء أهل الجنّة» ولا شك أنّ السيّدة مريم (عليها السّلام) داخلة تحت عموم نساء الجنّة، فهي منطويّة تحت السيّادة الفاطميّة .

الدّليل الكشفي:

وقد اتّفق أهل العرفان على هذا، ومذهبهم فيه الكشف الصّريح، ومعرفتهم بعلم المراتب والمقامات في الحضرة القدسيّة، وحقّقوا ذلك من جهتين:

- الأولى من جهة الكشف وهو آليّة ترجحيّة وثيقة عند الصّالحين، فما شهدوا إلّا بما شاهدوا من رتبتها ومقامها في القرب من الله ورسوله ﷺ .
- الجهة الثّانيّة في خلافتها للنّبوّة المحمّديّة، بعد إنتقال الحبيب ﷺ إلى الرّفيق الأعلى، وأثبتوا أنّه لم يرشح لذلك إلّا أفضل الأمّة قاطبة .

ولقد جاء في كتاب [جواهر المعاني وبلوغ الأماني في ترجمة الإمام التجّاني] جـ ١ ص ٢٥٩ – ٢٦٠ :

وسألته رضي الله تعالى عنه عن السيّدة مريم وسيّدتنا فاطمة رضي الله عنهما أيّهما أفضل ؟ فأجاب رضي الله عنه بما نصّه :

.. إنّ جماعة من العارفين أجمعوا مِن طريق الكشف، لا من طريق السمع، على أنّ السيّدة فاطمة أدركتْ مِن بعد أبيها ﷺ مرتبة القطبانيّة العظمى ..

وإذا قال سبحانه وتعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)، فليس في خلق الله عزّ وجلّ كلّها عموما من بعد الأنبياء من البشر والملائكة مَنْ يتأتّى منه أنْ يَصِلَ إلى مقدار ألف جزء مِن تقوى قطب الأقطاب ولو بلغ، .. فإذا تعقّلتَ هذا ففاطمة أفضل من السيّدة عائشة قطْعا ومن مريم وآسية.

وكونها رضي الله عنها أدركتْ القطبانيّة دون سائر النساء لكونها لا تحيض ومِن كونها أُعطِيَتْ مرتبة الكمال من أبيهاﷺ ما لا مطمع فيه للنساء، فلذلك أدركت القطبانيّة .

وقال ﷺ : وأمّا فاطمة رضي الله عنها فإنّها وصلتْ مرتبة القطبانيّة لأنّها استمدّتْ الكمالات الإلهيّة التي تتحمّل بها سِرَّ الاسم الأعظم، والثبوت في مرتبة القطبانيّة، فبذلك كانت هي أفضل النساء على الإطلاق.

من فضائلها عليها السّلام

وإنّنا نجد الشّارع الحكيم ﷺ، ينبهنا على قدر ابنته العظيمة بوسائل متنوّعة، وفي أحوال مختلفة، وفي أوقات متفرّقة، وهو الحريص علينا في ديننا، وما ذلك إلّا لمعرفته بأهمّيّة إعتقادنا وولاءنا للسيّدة الزّهراء، ولا ريب أنّ الذي أظهره منها لا يساوي قطرة ممّا أبطنه فيها من حقائق قدسيّة، لأنّ النّفوس لم تتأهّل لذلك، فمن ذلك :

بضعة النبوّة

إنّ أعظم منقبة، وأفخم خصوصيّة، تمدح بها السيّدة الزهراء عليها السّلام، هو انتسابها الخاص والوثيق بالجناب النّبوي الشّريف، فهذا يقدم على كلّ

الفضائل الأخرى، والتي تعتبر فرع عن هذا الكمال الكلّي، فإنّه لولا هذه النسبة المحمّديّة، لما كانت تلك الفضائل الفاطميّة بهذه المزيّة .

ومن هنا نجد الوحي الشّريف كثيرا ما يؤكد على هذا الأساس، فيقول سيّدنا ومولانا رسول الله ﷺ : «فاطمةٌ بَضعةٌ مِنّي » .[١]

وفي هذا تنويه بمقام الزهراء عليها السّلام، بأنّه مشتق من مقام النّبوّة، فلا تقاس بموازين سائر النّاس، ولهذا نجد السّلف الصّالح كانوا يقولون : لا نفضل على بضعة سيّدنا النبيﷺ أحدا .

وتأمّل في هذا الإستدلال النبوي، حينما سأل الحبيب ﷺ إبنته الكريمة عليها السلام :« أي شيء خير للمرأة قالت أن لا ترى رجلا، ولا يراها رجل، فضمها إليه وقال: ذرية بعضها من بعض ».[٢]

وما ذلك إلّا للسّر الذي بثّه سيّدنا الحبيب ﷺ فيها، ليبقى يسري إرثه في ذرّيتها أبدا، فلا بدّ على النّاظر في فضائل بضعة النبوّة، أن لا يهمل هذا الأساس في معيار القياس .

تنبيه هام

فمن هنا نقول لمن يستعظم على السيّدة أنّها مخلوقة من ماء الجنّة، ويردّ على حديث : « لما أسري بي دخلت الجنة، فناولني جبرئيل تفاحة فأكلتها فصارت نطفة وفاطمة منها، وكلما اشتقت إلى ريح الجنة قبلتها» والحديث هذا حكم عليه أهل العلم بالوضع لأنّ السيّدة عليها السّلام ولدت قبل الإسراء.

[١] رواه أحمد والحاكم ..

[٢] رواه البزار والدارقطني في الأفراد

ولكن نقول لهم : " لا يلزم من إبطال الدّليل إبطال مدلوله"، فلإن استثقلتم أن تكون مولاتنا (عليها السّلام) مخلوقة من الجنّة، فإنّها أعظم من ذلك فهي مخلوقة من النّور المحمّدي، والذي هو أصل الجنان الثمانيّة، ومن كانت بضعة محمّديّة، لهي أكبر وأقدس وأجمل من الكون كلّه، علوه وسفله .

مزاجها مزاج النّبوّة

واقدس بها حينما يقول سيدنا النبي ﷺ : «فاطمةٌ بَضعةٌ مِنّي يَقبِضُني ما يَقبِضُها، ويَبسطُني ما يَبسُطها»[1]، وهذا النّص الشّريف يؤسس لمعنيين:

١)فإن نظرنا إليه من كونه أسلوبا خبريا، ففيه ميزة لسيّدة الأمّة (عليها السّلام)، على أنّ مزاجها نوراني مقدّس، كمزاج أبيها المعصوم من الأهواء، فيصح أن نقول لمن يسأل عن خلقها: كان خلقها النّبوّة، كما قيل في حقه ﷺ : «كان خلقه القرآن» .

٢)وإذا نظرنا إلى الحديث الشّريف على أنّه أسلوب إنشائي، فهو يأمرنا أن نراعي لمزاجها وشعورها، فإنّ رضاها رضا لأبيها الكريم ﷺ وسخطها سخط له ﷺ، والعياذ بالله من سخط مولانا رسول الله ﷺ .

تبعث على القصواء

وهاهو سيد الورى ﷺ يصرّح في شأنها عليها السّلام : «إذا كان يومُ القيامةِ حُمِلْتُ على البُراق، وحملتْ فاطمةُ على ناقتي القصواءِ ».[2]

---

[1] رواه أحمد والحاكم ..

[2] رواه ابن عساكر في تاريخه .

وكأنّه ﷺ يورّثها من مقامه المحمود، الذي سيظهر به في اليوم الموعود، ولا غرو من هذا، فكلّ من اتّصل بالمحمود ستحمد عقباه، ففي اليوم الذي يفر فيه المرء من أمّه وأبيه، سيظهر مقام الزهراء بجنب أبيها العظيمﷺ، وآنذاك سيعرف مقامها المحمود، كما لا يعرف مقام أبيها الكريم ﷺ إلّا يومها .

تنكيس الرّؤوس لها

ومن مظاهر مقامها المحمود يوم القيامة، ما بشّر به مولانا رسول الله ﷺ : «إذا كان يومُ القيامةِ نادى منادٍ من بُطْنان العرشِ، يا أهلَ الجمعِ نَكِّسُوا رءوسَكم، وغُضُّوا أبصارَكم، حتّى تمرَّ فاطمةُ بنتُ محمدٍ ﷺ فتمرَّ مع سبعين ألفِ جاريةٍ من الحورِ العينِ كمرِّ البرقِ» .[1]

وفي رواية « فتمر عليها ريطتان خضراوان» .[2]

سبحان الله ما أقدسه من حال، عفة ما بعدها عفّة، وطهر ما فوقه طهر، حتى في ذلك اليوم الذي ما فيه تكليف، سيكلّف كلّ الخلائق بغض أبصارهم عن القديسة الطّاهرة .

ومع صفاء الجو ذلك، الذي ما فيه شياطين ولا إغراءات، ولكن سيخصّص للسيّدة الصّديقة جوّ أصفى وأسمى، ليتميّز مقامها، ويتوّج جنابها، أمام العالمين قاطبة .

وكأنّ هذا الموقف معرض احتفال بالزّهراء (عليها السّلام)، حيث تظهر بكسوة خضراء زهيّة، وهي محشودة محفودة بالحور العين، وما بالك بشمس يحففن بها الكواكب الزّاهرة، فاللّهم لا تحرمنا من رؤية ذلك المشهد النّوراني، ولا تكلّفنا بغض أبصارنا يومها .

حلّة الكرامة

---

[1] رواه الطبراني والحاكم وصححه .

[2] رواه الطبراني وأبو نعيم والحاكم وصححه .

بل وفي اليوم الذي يحشر النّاس فيه حفاة عراة ستُخلَعُ على السيّدة البتول عليها السّلام، ثياب خضراء قدسيّة، سترا ومنظرا ومظهرا، كما جاء في تتمّة الحديث الماضي « فتمر عليها ريطتان خضراوان» .[1] .

ويؤيّد هذا ما روي عن سيّد الوجود ﷺ، مبشرا لبضعته الطاهرة بقوله : «تحشر ابنتي فَاطِمَة وعليها حلة الكرامة قد عجن بماء الحيوان»[2] .

ولك أن تتدبّر وتتبصّر ما الإشارة المكنونة تحت عبارة (حلّة الكرامة) وعبارة (ماء الحيوان) أي مصدر الحياة، فإنّ تحت العبارات النّبويّة أسرارا ربانيّة .

قدم الصّدق

ومن مقامها المحمود في اليوم المشهود، ما روي عن سيّد الوجود ﷺ قوله : «أنا وفاطمة وعلي مجتمعون، ومن أحبنا يوم القيامة نأكل ونشرب حتى يفرق بين العباد »[3] .

ولا غرو فإنّها تستمد من المقام المحمود من الشّاهد والمشهود ﷺ، ولا تعارض هنا بين هذا الحديث والحديث السّابق من مرورها بسرعة إلى الجنان، فإنّ نزولها في الحشر هنا، إنّما هو لشفاعتها في من أحبّها، ثمّ بعد ذلك تمرّ إلى مأواها المكرّم، كما جاء في حديث سيّدنا علي عليه السلام قال: شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس إياي فقال : «أما ترضى أن أول من يدخل الجنة أنا وأنت وفاطمة والحسن والحسين، قلت: يا رسول الله فمحبونا ؟ قال: من ورائكم »[4] .

---

[1] رواه الطبراني وأبو نعيم والحاكم وصححه .

[2] الحاكم .

[3] رواه الطبراني .

[4] رواه الحاكم والطبراني وابن عساكر والقطيعي وابن الأعرابي.

أوّل من يدخل الجنّة

وهكذا تتدرج السّيّدة العظيمة في مدارج المقام المحمود، خلافة لسيّد الوجود ﷺ، فكما قال لنا أنّه هو من يفتح باب الجنّة، فقد قال لنا روحي له الفداء : «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا بِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَوَّلُ شَخْصٍ يَدْخُلُ عَلَيَّ الْجَنَّةَ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِثْلُهَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِثْلُ مَرْيَمَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ،»[1]

ومثله ما روي عن سيّدنا علي عليه السلام قال: أخبرني رسول الله ﷺ أنّ أول من يدخل الجنة أنا وفاطمة »[2].

أجل فحيثما كان الحبيب ﷺ ستكون بضعته، إلّا أنّها تظهر في بعض الحضائر، وتختفي في أخرى، على حسب الأحوال .

سيّدة نساء الجنّة

وفي دار التّحقيق، سينجلي مقام البتول عليها السّلام حقيقة، وستظهر سيادتها على نساء أهل الجنّة، بشاهد ما ورد في الصّحيحين من قول المعصوم ﷺ : «فاطِمَةُ سِيِّدةُ نِساءِ أَهْلِ الجَنِّة»[3].

وإذا قلت الجنّة معناها، أنها في الدّنيا من باب أولى، لأنّ الدّنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

---

[1] رواه ابو نعيم في دلائل النبوة

[2] رواه ابن سعد

[3] متفق عليه .

ومعناها أنّ كلّ ما فيه نساء أهل الجنّة من الجمال والقدسيّة، من الحور أو الإنسيات، فإنّه لمعة من محاسن الزهراء عليها السّلام .

كيفَ لا والحُورُ مِن إيمائِها تَرجُوا مِن إزهارِها مُلْتَمَسا
مافُيوضُ الحَوضِ إلّا قَطرَةٌ يَستَقي دَوْماً وإلّا احْتَبَسَا
وَرَواحُ الرَّوضِ مِن رَيحانِها ظَلَّ لَولاها جَحِيمًا نَجِسا

ومعناه أنّ حقيقة سيادتها لن تظهر في دنيا الحجاب، ولكنها ستظهر في دار الحقائق، كما قال سيّد الكلّ ﷺ : (أنا سيّد الناس يوم القيامة)، أي أنّ مقامها المحمود، سينجلي في تلك الدّار.

ومعناه أنّ جمالها الرّوحاني الرّباني لن ينجلي إلّا لمن كان من أهل الجنّة، فلو ظهر هنا لرآه من ليس أهلا له .

براءتها وذريتها من النّار

ولم يكتفي الحبيب ﷺ بإعلان تلك المناصب كلّها، بل زاد ونفى عنها السّلب بنص الوحي، ليُحقق المعادلة المنطقيّة من طرفيها، فقال روحي لنعله الفداء أمام الملإ كلّهم : «إنّ فاطمةَ أحصنَتْ فَرْجَها، فحرمَها اللهُ وذُرِّيَّتها على النّار»[1]، وقال لها ذات مرّة بينها وبينه ﷺ :« إنّ اللهَ غيرُ معذِبِك، ولا وَلَدَكِ »[2].

وحاشاها وهي بضعة من نور الأنوار، أن تمسها النار، ولكنها لو دخلتها لأزهرتها بازدهارها، بل ولسرّها شملت ببركتها أبناءها من بعدها، فحرمهم الله تعالى على النّار، فما أوفرها من حرمة التي تشمل كلّ الذّريّة، فهذه الكرامة

---

[1] رواه الدارقطني وأبونعيم والحاكم وصححه .

[2] رواه الطبراني، وقال الهيثمي رجاله ثقات .

حقا، لا كرمة الطيران في الهواء، ولا كرامة السّريان على الماء، ولكنها الكرامة التي تشمل برحمتها وشفاعتها قرونا من الخلق بعدها .

في معيّة الوسيلة

ولم تبرح السّيّدة الزهراء تتدرّج في معارج الوراثة المحمّديّة، حتى كانت معه في المعيّة العنديّة، وهذا ما يشير إليه الكامل ﷺ بقوله : «في الجنة درجة تُدعى الوسيلةُ، فإذا سألتم الله فسلُوا ليَ الوسيلةَ، قالوا يا رسول الله ﷺ من يسكن معك فيها ؟ قال : عليٌّ وفاطمةٌ والحسنُ والحسينُ ».[1]

ويعضده قول سيّد البرايا ﷺ : «إن فاطمة وعليا والحسن والحسين في حظيرة القدس في قبة بيضاء سقفها عرش الرحمن »[2].

ويؤكده ما روي أنّ سيّدنا رسُول اللهِ ﷺ دخل على ابنته فَاطِمَة وابناها إلى جانبها، وعلي نائم، فاستسقى الحسن فأتى ناقة لهم فحلب منها ثم جاءته منازعة الحسن أن يشرب قبله حتى بكى فقال يشرب أخوك ثم تشرب فقالت فَاطِمَة كأنه أبر عندك منه ، قال : ما هو بأبر عندي منه وإنهما عندي بمنزلة واحدة وإنك وهما وهذا المضطجع معي في مكان واحد يوم القيامة »[3].

وهذا غاية مقامها المحمود، حيث يظهر للخلائق شأوها وشأو أهل بيتها الكرام عليهم السّلام، وحينها ندرك يقينا بأنهم وسيلتنا إلى الله ورسوله ﷺ.

---

[1] رواه ابن مردويه .

[2] رواه ابن عساكر.

[3] رواه الحاكم النيسابوري

حبيبة الحبيب ﷺ

وإنّ من عظمتها عليها السّلام أنّها أحب الخلق إلى الحبيبﷺ، إذ يقول وهو المعصوم الكامل ﷺ : «أحبُّ أهلي إلَيَّ : فاطمةُ »[1].

ولمّا سُئِلَت أمُّنا عائشة رضي الله عنها : « أيُّ النّاسِ كانَ أحبَّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ؟ قالت : فاطمةُ . فقيل ومِن الرجال ؟ قالت : زوجُها، إن كانَ ما علمتُ صوّاماً قوّاماً»[2].

وقال سيدنا علي عليه السلام للحبيب ﷺ، لمّا جلس بينه وبين السّيّدة عليها السلام وهما مضطجعان : أيّنا أحبُّ إليك أنا، أو هي ؟ فقال ﷺ : «هي أحبُّ إليَّ، و أنت أعزُّ عليَّ منها »[3].

وجاء في السّنن أنّ سيّدنا أبا بكرٍ رضي الله عنه استأذن على رسول الله ﷺ، فسَمِع صوتَ عائشة عالياً وهي تقول : «واللهِ لقد عَرَفتُ أنّ عليّاً وفاطمةَ أَحَبُّ إليك مِن أبي ومنّي! ـ مرّتينِ أو ثلاثاً. فدخل فأهوى إلى عائشة قائلاً: يا بنتَ فُلانة! ألاّ أَسمعُكِ ترفعين صوتَكِ على رسول الله ﷺ »[4].

وروى الحاكم، عن أبي هاشم، عن أمه رضي الله عنها، وكانت خادمة لسيّدنا رسول الله ﷺ، قالت : «جاء رسول الله ﷺ وعلي وفَاطِمَة قائمان قد أضحت عليهم الشمس، وعليه كساء خيبري، فمده دونهما ثم قال : أحب حاضر وباد إلي» [5].

[1] رواه الحاكم والترمذي وقال حديث حسن .

[2] رواه الترمذي والحاكم .

[3] رواه أحمد في مسنده .

[4] رواه النسائي والحاكم .

[5] الحاكم .

وعن أم سلمة قالت: «بينا رسول الله ﷺ في بيتي إذ قال الخادم: إن عليا وفاطمة بالباب فقال: قومى فتنحى عن أهل بيتي، فدخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره، واعتنق عليا بإحدى يديه، وفاطمة بالأخرى فقبل فاطمة، وقبل عليا»[1].

ومن ذلك أنّه كان يتفداها ﷺ كما جاء في حديث ثوبان أنّ سيّدنا رسول الله ﷺ أراد أن يدخل إلى بيتها فوجد فيها ستارا فرجع، فلما علمت بذلك نزعته وتصدّقت به، فجاء حتى دخل عليها فاعتنقها، وقال هكذا كوني فداك أبي وأمي .[2]

ومعرفة هذه الحقيقة تستلزم منّا أمرين، أولهما اعتقادي في إنزال السّيّدة منزلها من المجد والشّرف والمكانة، لكونها أحبّ الخلق إلى صاحب النّبوّة والرّسالة ﷺ، وحاشاه أن يكون حبّه مجرد عاطفة أبوّة، فما أحبّها إلّا لأنّ الله تعالى يحبّها، ولأنّها بلغت من الكمال ما استوجبت به هذه المحبّة .

وثانيها أمر تكليفي في وجوب حبّها وولاءها، فلنا في صاحب الدّين ﷺ أسوة في حبّها، فمن هنا وجب حبّها على كلّ من يؤمن بالله ورسوله ﷺ.

البركة المحمّديّة

ومن التّجليات النبويّة التي جلببت السيّدة الزهراء بالعظمة، تجلي البركة المحمّديّة، الذي أفاضه عليها بلا تواني، والذي أبان بعضا منه ليلة عرسها الميمون، حينما قال لها الحبيب ﷺ ائتيني بالمخضب فاملئيه ماء، فأتته أسماء بالمخضب فملأته ماء ثم مج الحبيب ﷺ وغسل فيه قدميه ووجهه، ثم دعا

[1] رواه أحمد في مسنده .
[2] رواه ابن حبان في صحيحه .

فَاطِمَة فأخذ كفا من ماء فصبه على رأسها وكفا بين ثدييها وبين رجليها ثم التزمها، ثم قال :

(اللهم إنها مني وأنا منها اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتني تطهيرا، فطهرها، ثم دعا بمخضب آخر، ثم دعا لعلي فصنع به كما صنع لها ودعا له كما دعا لها، ثم قال قوما إلى بيتكما، جمع الله شملكما وبارك لكما في جمعكما وأصلح بالكما) ثم قام فأغلق عليهما بابه بيده .

قال سيّدنا ابن عباس ﷺ: فأخبرتني أسماء بنت عميس أنها رمقت رسول الله ﷺ، فلم يزل يدعو لها خاصة لا يشركها في دعائه أحدًا حتى توارى في الحجرة .

ومن جملة ما دعا لها ﷺ ليلة الدخول بقوله :" اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ".

وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبا لهما :" بارك الله لكما، وبارك فيكما، وأعز جدكما، وأخرج منكما الكثير الطيب ". قال سيّدنا أنس ﷺ : فو الله لقد أخرج منهما الكثير الطيب .

المطهرة من الطمث

ومن خصائصها عليها السّلام، أنّها طاهرة نظيفة نزيهة، بل لقد تعدّت طهارتها من الباطن إلى الظاهر، فخرقت عادة جنسها من الإناث، فأثنى عليها الحبيب الطّاهر ﷺ : «إبنتي فاطمةٌ، حوراءٌ آدميّةٌ، لم تَحِضْ ولم تَطمُثْ»[1] .

فقال الحافظ السيوطي ـ رحمه الله ـ في الخصائص : ومن خصائص ابنته

[1] رواه الخطيب والصيداوي .

فاطمة عليها السّلام أنها كانت لا تحيض، وكان إذا ولدت طهرت من نفاسها بعد ساعة حتى لا تفوتها صلاة، ولذلك سميت الزهراء .

ولا غرو من نزاهتها عن عوائد النساء، فقد قال عنها سيّدنا ﷺ بأنّها قد كملت مثل الرّجال، فقد نزهها الله تعالى عن أن تبقى بالأيام وهي غائبة عن حضرته، من دون عبادة له، فكانت دائمة في اتصال وحضور معه .

بل ولقد كُمّل جسمها وهيأتها، حتى استغنت عن ضرورة الحيض والنفاس، لأنّه لا دم فاسد فيها، بل كلّ ما فيها صالح ونافع .

وفي هذا إعجاز علمي، ننادي به الأخصائيين أن يدرسوه، فإذا قلتم أنّ الحيض والنّفاس ضروري للمرأة، وإلّا لأصيبت بأمراض خطيرة، فماذا تقولون في هذه الكرامة العجيبة لسيّدة النّساء .

الكوثر

ومن أنفس مناقبها (عليها السّلام)، أنّها حملت في بطنها أنوار الذّريّة النّبويّة، فتناسل منها أبناؤه الأشراف، الذين جعلهم الله تعالى خلائف عن رسوله الأعظمﷺ، في أمّته إلى يوم الدّين .

بل وإنّها هي المقصودة تحقيقا بـ (الكوثر) الذي نزلت فيه السّورة، حيث أنّ سبب نزول سورة الكوثر كان في شأن الذّريّة، حتى قال لهم سبحانه بعدما تحدّاهم بالكوثر (إنّ شانئك هو الأبتر) أي المقطوع النّسل، فالسّياق العربي يقتضي أن يكون مقابل الأبتر هو الكوثر، فما هو الكوثر ؟

الكوثر على وزن فوعل وهو مأخوذ من الكثرة، ولا ريب أنّها هنا تعني كثرة ذريته ﷺ، والتي تناسلت كلّها من بطن السّيدة الزّهراء، فمن هنا كانت هي الكوثر التي ولدت الكثير .

ويشهد لهذا قول سيّد الأكوان ﷺ : «يا بنيةُ إنّه ليس مِن نساءِ المسلمين، إمرأةٌ أعظمَ ذُريّةٍ منكِ »[1] ، وصدق الصّادق المصدوق ﷺ، فإنّ الإحصائيات اليوم تشير بأنّه يوجد حوالي ثلاثين مليون شريفا في العالم، فما بالك بالقرون السّابقة واللّاحقة .

ولو أنّ الحديث الشّريف أشار إلى النّـــوعيّة لا إلى الكميّة، فقال ﷺ : (أعظم ذريّة) ولم يقل أكثر فحسب، وإن كانت العظمة تشمل الكثرة كذلك، فعظمة ذريتها فرع عن عظمتها هي (عليها السّلام)، وانظروا كم في أهل البيت من قطب وصالح وعالم ومصلح ومجاهد وشهيد ..، حتّى تختم الدّائرة بهم كما بدأت بهم، مصداقا لقول الحبيب المحبوب ﷺ : «أبشِري يافاطمةُ، المهديُّ مِن ولَدِكِ» [2].

إختيار المحيط لها

إنّ المتأمّل في شخصيّة السّيّدة البتول (عليها السّلام)، سيجد أنّ العظمة تكتنفها من كلّ الجوانب، فأبوها سيّد الوجود ﷺ، وأمّها السّيّدة خديجة الكبرى سيّدة نساء عالمها، وبعلها سيّد العرب ويعسوب المؤمنين عليه السلام، وابناها سيّدا أهل الجنّة عليها السّلام .

---

[1] رواه الطبراني والبيهقي .

[2] رواه أبو نعيم وابن عساكر.

وقد تفطّن الشّاعر محمد اقبال الباكستاني لذلك فقال :

نسب المسيح بنى لمريم سيرةً بقيت على طول المدى ذكراها

والنجم يشرق من ثلاث مطالع في مهد فاطمة فما أعلاها

هي بنت مَن هي زوج مّن هي أمّ مّن من ذا يداني في الفخار أباها

وهذا ما حققه الوحي الشّريف، حينما قال لها أبوها الشّريف ﷺ : «أما تَرضَينَ يا فاطمةُ، أنّ اللهَ عزّ وجلّ اطّلعَ إلى أهلِ الأرضِ، فاختارَ منهم رَجُلَينِ فجعلَ أحدَهما أباكِ، والآخرَ بَعْلَك »[١]، يعني سيّدنا علي عليه السلام .

وقَالَ لها ﷺ في مرّة أخرى : « أَوَ مَا تَرْضَيْنَ أَنِّ زَوَّجْتُكِ أَقْدَمَ أُمَّتِي سِلْمًا، وَأَكْثَرَهُمْ عِلْمًا، وَأَعْظَمَهُمْ حِلْمًا ».[٢]

بل وقال ﷺ : «إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي»[٣] كتوكيد منه على أنّ الأمر وحي، وليس مجرد رأي .

وقال لها ﷺ يطمئنها لذلك : «يا فاطمة أما إني ما آليت أن أنكحتك خير أهلي»[٤]، يعني أنه لولا سرّ تناسل الذريّة المرجوة منها، لما تزوّجت، ولهذا جاء في بعض الآثار، أنّه قال لها : (لو لم أزوجك بعلي لم أجد لك كفؤا) .

ولقد توسع النّطاق إلى أكثر من ذلك فيما روته السيّدة فاطمة، أن أبوها الكريم ﷺ قال لها: " نبينا خير الانبياء وهو أبوك، وشهيدنا خير الشهداء وهو عم أبيك حمزة، ومنا من له جناحان يطير بهما في الجنة حيث يشاء وهو

[١] رواه الطبراني والخطيب والحاكم وصححه .

[٢] رواه أحمد في مسنده .

[٣] رواه الطبراني .

[٤] رواه ابن سعد مرسلا .

إبن عم أبيك جعفر، ومنا سبطا هذه الامة الحسن والحسين وهما إبناك، ومنا المهدي »[1] .

فإن شئت أن تقول أنّ الله تعالى اختار لهذه السّيّدة زوجا عظيما، وإن شئت أن تقول أنّ تلك العظمة والرّفعة اكتسبها هو من هذه السيّدة، ومثل ذلك يقال في أمّها الكبرى، فإن شئت أن تقول أنّ الله اختارها لها، لمّا كانت إحدى الكمل الأربعة من النّساء، وإن شئت أن تقول أنّ السيّدة خديجة رضي الله عنها نالت هذه المكانة ببركة ابنتها سيّدة نساء العالمين، ومثل ذلك يقال في ابنيها الحسنين عليهما السّلام .

واُكـرِم بهـا أُمّـا وبِنتَـا وزَوْجَـةً وأعْجِـزْ بهـا ذاتا وَوَصْـفًا ونَسْـجَةً
وأعْـزِزْ بهـا قَامّـا وقـدرا وعَرْجَـةً وألطِـفْ بهـا رُوحـاً ونَفْسـاً ومُهْجَـةً
فغَـوثاهُ يا أمّـاهُ جُـودِي تَفَضُّـلَا

يسر المهر من بركة القدر

جاء في الحديث الشّريف : «أَعْظَمُ النِّسَاءِ بركة أيسرهن صداقا»[2] ولقد طبّق المعصومﷺ هذا في حق فلذة كبده عليها السّلام، فكان مهرها مجرد درع حرب، قدمه الإمام عليعليه السلام بين يدي سيّدة نساء العالمين عليها السّلام، وفي هذا دلالة على أنّها أعظم النّساء بركة، وأفخمهن قدرا .

ويدلّ أيضا على أنّ الدنيا بكلّها، لن تساوي مهر بضعة النّور عليها السّلام، بل لو كانت المهور بميزان الأقدار، لكانت الجنّة برمّتها دون مهرها.

[1] الطبراني والدارقطني .

[2] رواه ابن حبان في صحيحه .

وفي ذلك دلالة على أنّ مولى الوجود ﷺ لا يطلب لأهل بيته أجرا، كما لم يطلب لذاته هو، فلا جرم أن قال سبحانه : (قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى) فأجره علينا هو في مودة أهل بيته الكرام .

فكان المهر اللّازم للسيّدة الزهراء على سيّدنا علي عليهما السّلام، هو مودّتها وملاطفتها والإحسان إليها، وكذلك كان الحال من بعلها الوفي .

بل وفيه إشارة إلى أنّ المهر من حق سائر النّساء، ولكن ليس في شأن الكمّل الأربعة المستثنين منهن، فهو لا يعنيهنّ بشيء، والزهراء سيّدتهن جميعا، فمهورهنّ مِن عطاء القلوب لا مِن عطاء الجيوب .

إذا رضيت يرضى مولاها

ومن دلالها وكرمها على الله تعالى، أنّ رضاها صار رضا للرّب تبارك، وسخطها سخط له عزّ وجلّ، كما ورد في الحديث الشّريف قول الحبيب ﷺ : «يا فاطمةُ إنّ اللهَ يَغضبُ لغضبِكِ، ويرضى لِرضاكِ »[1] .

وكفى بهذا سؤددا وعزما، فمن جهة يتضح لنا مقامها عند ربّها ﷻ والذي ورثته من أبيها العظيم ﷺ، فكان يقول ﷺ :«فاطمةٌ بَضعةٌ مِنّي يَقبِضُني ما يَقبِضُها، ويَبسطُني ما يَبسُطها» وهنا علاقة تعدي منطقيّة، أي : فإذا رضيت هي سأرضى أنا، وإذا رضيت أنا سيرضى الله تعالى .

ومن جهة أخرى فالحديث فيه تكليف لنا، أن نتقي الله في مزاجها وشعورها، فلا نفعل معها ولا مع ذريتها إلّا ما يرضيها، ليرضى الله عنّا ورسوله ﷺ .

---

[1] رواه الطبراني وأبو يعلى والحاكم .

ومن جهة ثالثة ندرك أنّ كلّ شؤونها عليها السّلام، كانت مرضيّة عند الله ورسوله ﷺ، فما وافق مزاجها فخير، وإلّا فشرّ.

المرأة الكاملة

ولمّا كان الكمال في الحضرة لخواص الرجال، إستثنى سيّد الورى ﷺ بعض النّسوة، وعلى رأسهنّ السّيّدة المباركة (عليها السّلام)، فقال ﷺ : «كَمُلَ مِنَ الرِّجال كَثيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النّساءِ إلاّ أَرْبَعٌ: مَرْيمٌ وَآسِيَةٌ وَخَديجَةٌ وَفاطِمَةٌ »[1] .

فهي المرأة الكاملة بل الأكمل في العالمين، ومعنى كمالها هو تهيؤها لوراثة السّر النّبوي من بعده ﷺ، فكانت نسخة من أبيها ﷺ بعد غيابه الجسماني، فهي أوّل من فتح دائرة القطبيّة في الأمّة المحمّديّة .

ويدلنا معنى الكمال فيها على أنّها ليست كسائر النّسوة في عاداتهنّ، كمثل ما خاطبهن المعصوم بقوله ﷺ : (ناقصات عقل ودين) فما قَصُرَتْ فيه الإناث في الهيئة أو في النفسيّة أو في العقليّة أو في الرّتبة ..، فإنّ هذه السّيّدة كاملة فيه، وما فيها نقص حاشاها، فكيف وقد شهد لها الإنسان الكامل ﷺ بذلك فقال : «فاطِمَة لَيْسَتْ كَنِساءِ الآدَميّين»[2] .

[1] رواه أحمد والطبراني .

[2] رواه الدراقطني والخطيب والطبراني .

إعلان الحرب على من آذاها

ومن فخيم قدرها عند الله ورسولهﷺ، أنّ صاحب التّشريع قد أعلن أنّه محارب لمن عاداها، حيث يقول ﷺ : للسيّدة فاطمة وبعلها وابنيها عليهم السّلام : « أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم»[1] .

فيضاف هذا إلى الاثنين الذَينِ حاربهما الله ورسولهﷺ، (آكل الربا ومؤذي الأولياء) وإن شئت أن تدخله تحت معنى "مؤذي الأولياء"، على أنّ أهل بيت الحبيب ﷺ هم أهل الله بالأولى، فيكون معنى (من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب) هذا لأهل البيت بتخصيص النّص، أمّا لسواهم فبالاجتهاد في التّحديد .

شدّة عناية الحبيبﷺ بها

ومن أفخر مناقبها عليها السّلام، شدّة اعتناء سيّد الوجود بها ﷺ، عناية لم يعتنيها بغيرها قط، حتى أنّه كان يناديها بأمّي، فيقول لها " أمّ أبيها " وكان يقبّلها وتقبّله، ويعانقها وتعانقه، ويداعبها ويلاطفها بما تعجب له العقول، ويراعي حتى لمزاجها وخاطرها ..

فلقد جاء في الحديث المشهور أنّه دخل ذات ليلة عليها وهي في فراشها مع مولانا الكرار عليه السلام ، فلما رأياه استحييا منه، فكأنهما أرادا أن يتنحيا، فقال لهما المعصوم ﷺ : كما أنتما . قال : فأدخل رجليه بينهما في اللّحاف، كأنه يدفئهما وكانت غداة خضرة ..»[2]

[1] رواه ابن ماجه وابن أبي شيبة وأحمد .
[2] رواه البخاري في صحيحه .

وعن أمّنا عائشة رضي الله عنها، أنّها قالت في وصفها للسيّدة الزّهراء عليها السّلام : .. و كانت إذا دخلت على النبي ﷺ أخذ بيدها فقبّلها، و رحّبَ بها، و أجلسَها في مجلسه، و كان إذا دخلَ عليها قامتْ إليه، ورحّبَتْ به، وأخذتْ بيده فقبّلَتْها»[1] .

ولشدّة اعتنائه بها أنّها كانت آخر وأوّل عهده في السّفر، كما قال سيّدنا ابن عمر ﷺ : أنّ النبيّ ﷺ كان إذا خرج، كانَ آخرُ عهدِهِ فاطمةَ، وإذا رجعَ كان أولُ عهدِهِ فاطمةَ عليها السلام»[2] .

وعن سيدنا أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمر ببيت فاطمة بعد أن بنى بها على ﷺ بستة أشهر يقول " الصّلاة الصّلاة " : (إنّما يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطهّرَكُمْ تَطْهِيرا) »[3] .

وعن سيّدنا أبي سعيد قال : « لما نزلت هذه الآية (وآت ذا القربى حقه) دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة وأعطاها غنائم فدك »[4] .

أوّل أهله لحوقا بـه ﷺ

وتتجلى لنا مكانتها عند الحبيبﷺ ومكانة الحبيبﷺ عندها، في كونها أوّل اللّاحقين به من أهله، وهذا الأمر لم يكن ذا شأن لو لم يذكره الوحي، حينما ناجاها سيدنا رسول الله ﷺ بسره فقال : إنّ جبريل كان يعارضني القرآن

[1] رواه الحاكم والترمذي .

[2] رواه أحمد وابن شاهين والحاكم .

[3] رواه مسلم في صحيحه .

[4] رواه ابو يعلى والحاكم .

كلّ سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراني إلا حضر أجلي، وإنّك أول أهل بيتي لحاقا بي »[1] .

فيا ترى لماذا بقيت بعده دون باقي أولاده ﷺ، ولماذا أسرعت اللّحوق به في بضعة أشهر ؟

أجل فإنّها بقيت بعده لترثه وتؤدي الأمانات بعده، حيث لا يستطيع حملها بعده إلّا بضعة منه، كما يشير إليه حديث : (لا يبلغ عني إلّا أنا أو رجل منّي) فكانت لسيدنا عليّ عليه السلام ظاهرا، وللسيّدة البتول باطنا.

أسرعت اللّحاق به لثقل الأمانة التي تحمّلتها عن أبيهاﷺ، وما جرى من انفعالات روحانيّة، وتوهّجات نورانيّة، في لحظة تحوّل السّر من النّبوّة إلى الولاية، فلهذا عظم الحمل على تلك الذّات اللّطيفة، فحملته ستّة أشهر وانتقلت .

وأسرعت في اللّحاق به لشدّة تعلقها به، ولإلتحام البضعة بأصلها، فانجذبت نحوه انجذابا خارقا للعادة، بحيث أنّها كانت في العشرينيات من عمرها، ولم تكن تشتكي من داء سوى فقدانها لحبيبها ﷺ .

ولك أن تتأمّل في قوله ﷺ : (أوّل أهل بيتي لحاقا بي) ولم يقل وفاة أو ..، ففيه إشارة إلى التحاق الفرع بالأصلﷺ، واندماج الجزء في الكل ﷺ .

أشبه الخلق بالحبيبﷺ

وممّا يضفي على شخصيّة البتول عليها السّلام تلك القدسيّة، كونها كانت شبيهة بالشمائل النبويّة، الخلقيّة منها والخلقيّة، جمالا وجلالا وكمالا، حتّى قالت أمّ

---

[1] رواه البخاري .

المؤمنين رضي الله عنها: ما رأيتُ أحداً أشبهُ سَمتاً ودلّاً وهدياً برسول الله ﷺ في قيامِها وقعودِها، من فاطمةَ بنتِ رسولِ الله ﷺ »[1].

ولا غرو من بعدما شهد لها المعصوم ﷺ بأنّها بضعة منه، كتلويح منه ﷺ إلى أنّ هذه المشابهة هي فطريّة في ذاتها، فلن تتكلف في متابعة نهجه ﷺ، لأنّها عليها السّلام عينه ومهجته .

وهذا الشّبه هو الذي سرى منها إلى ذرّيتها الطاهرة، إبتداء من الرّيحانتين وما كانا يتمتعان به من مشابهة ومشاكلة للجناب الشّريف، حتى روي أنّ سيّدنا الحسن السّبط عليه السلام كان لا يملّ النّاس من النظر فيه، وكانوا يشمون منه أنفاس الحبيب ﷺ .

ولمّا جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام يسأله عن صفة الحبيب ﷺ، قال له أنظر إلى الحسن من الأعلى، وإلى الحسين من الأسفل، وكيف لا وقد ثبت أنّ السيدة فاطمة عليها السّلام أتت بابنيها، فقالت يا رسول الله ﷺ انحلهما فقال : أمّا الحسنُ فقدْ نَحَلتُهُ حِلْمِي وهَيْبَتي، وأمّا الحسينُ فقدْ نحلتُهُ نَجدتي وجُودي»[2] .

وهذا الوراثة المحمّديّة ظهرت جليّة في الذّريّة الفاطميّة، حتى صار العرب يتفرسون في الشّريف بأحد الأمرين : الخلقة الحسنة أو الأخلاق الحسنى، بل إنّ الأمر تعدى هذا، حتى صار بعض الأشراف يظهر على جسده أثر

---

[1] رواه الترمذي والحاكم .

[2] رواه الطبراني .

لخاتم النّبوّة الذي كان على جده المعصوم ﷺ، ولقد ظهر هذا على حسب ما تحكيه كتب التراجم في عدّة من السّادة، منهم على سبيل المثال :

- سيدي محمد الشبيه الجوطي العمراني الحسني الإدريسي، حتّى لقب من ينسب إليه بالشّبيهي، وذلك لأنّه كان بين كتفيه أثر لخاتم النّبوّة، وراثة من جده الأعظم ﷺ .
- والقطب سيدي محمد بن عبد الواحد الكتاني قدس الله سرّه .
- والعارف بالله سيدي عثمان بن محمد الكتاني قدس الله سرّه، وقال الشيخ الكتاني وهي عديدة في أهل بيتنا..

فيا ليت شعري ما العلامات الوراثيّة التي كانت في جسد السيّدة (عليها السّلام)، بيد أنّها كلّها آية من آيات النّبوّة، فهي بضعة من النّور ﷺ .

ملك ينزل ببشارتها

ولقد تعدّت فضائلها شهرة وصيتا في الأرض، فشاع مجدها في آفاق الملإ الأعلى، حتّى نزل ملك يزور بيت النّبوّة، متباشرا بقدر البتول وابنيها عليهم السّلام، ويشير مولانا الحبيب ﷺ إلى هذا بقوله : «إن ملكًا من السماء لم يكن زارني فاستأذن الله في زيارتي فبشرني أنّ فاطمة سيدة نساء أمتي، وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[1] .

أجل فإنّ قدر هذا البيت المجيد كان حديث أهل الحضائر ولا يزال، وكيف لا وهم بيت سيّد الحضرة، وإمامها، بل وقطب رحاها ﷺ .

[1] رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم .

وإن غلظ طبعك عن تذوّق هذه اللّطائف، فاستأنس بحديث وضع القبول الذي جاء فيه : « إذا أحبَّ الله عبدًا نادى جبريلُ، إنَّ اللهَ يحبّ فلانًا فأحِبَّه، فيُحِبَّهُ جبرِيلُ، ثم يُنَادِي في الملائكة : إن اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأَحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّمَاءِ، ثم يُلقَى له القَبولُ في الأرض» .

فمن يا ترى أولى من أهل الكساء بهذه المزيّة، لا سيّما من بعدما أحبّهم الحبيب ﷺ، بل وكأنّ نزول الملك لزيارتهم والتبشير لهم، هو دليل تطبيقي لحديث وضع القبول .

لا ضرة لها

ومن خصائصها عليها السّلام، أنّه لا يجوز لبعلها أن يتزوّج عليها، مع أنّ تعداد الزوجات كان من سنّة سيّد المرسلين ﷺ، ولكن للبتول شأن آخر، فلقد جاء عن السيّدة أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: «خطبني علي فبلغ ذلك فاطمة عليها السّلام، فأتت رسول الله ﷺ وقالت : إن أسماء متزوجة عليا، فقال ﷺ : ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله ﷺ »[١] .

وعن سيّدنا ابن الزبير رضي الله عنه : «أنّ عليا ذكر ابنة أبي جهل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إنما فَاطِمَة بضعة مني، يؤذيني ما آذها، وينصبني ما أنصبها »[٢]، وفي هذا عدّة معاني منها :

---

[١] رواه الطبراني .

[٢] رواه الحاكم .

- أنّ وجود ضرّة لها يؤذي شعورها، ومن مكانتها عند الله ورسوله ﷺ، أنّه لا يجوز تكدير خاطرها، لهذا قال ﷺ : " يؤذيني ما أذاها"، فيا له من مقام عظيم جسيم .
- وفي منع وجود الضّرة معها، إشارة إلى أنّه لا وجود لضرّة معها في مقامها ورتبتها في الحضرة .
- وفي ذلك تنويه إلى أنّه هناك سرّ يسري من النّور المحمّدي إلى سيّدنا عليعليه السلام ليجري منه إلى السيّدة الزهراء، ليتناسل منهما الذّريّة الطاهرة، فلا يجوز تحقيقا أن يخلّط بغيرها، ولمّا انتقل سيّد الورىﷺ ذهب ذلك السّرّ السّاري، لهذا لم تنجب السّيّدة بعد ذلك .

وهذا السّر هو المشار إليه في حديث : «إنّ الله جعل ذرية كلّ نبي في صلبه، وإنّ الله جعل ذريتي فى صلب علي بن أبى طالب»[1] .

وإن شئت أن تقول أنّ النور ذاك كان يسري من السيّدة الزهراء إلى الكرار (عليهما السّلام)، توافقا مع حديث : «إنّ لكلِّ بَنِي أبٍّ عُصبَةٌ يَنتَمُونَ إليها، إلّا ولدُ فاطِمَةَ ؛ فأنا وَلِيُّهُم، وأنا عُصبتهُم، وهم عِتْرَتِي، خُلِقوا مِن طِينَتِي»[2]، و لهذا ارتفع هذا السّرّ معها، فكانت ذريّة أمير المؤمنين بعدها ليسوا من الأشراف .

أعظم من رزء بالحبيب ﷺ

وإذا كان فقد الحبيب ﷺ هو أعظم مصيبة أصيبت بها الأمّة المحمّديّة، فإنّ أولى من تحمّل هذه الفاجعة الكبرى هي السيّدة الزهراء عليها السّلام،

[1] رواه الطبراني والخطيب .
[2] رواه الحاكم وابن عساكر

لما لها من صلة وثيقة بالجناب الشّريف، فكانت كأنّها فقدت روحها وهي تمشي على وجه الأرض، لهذا شهد لها سيّد البرايا ﷺ بذلك فقال عنها : «هي خير بناتي أنها أصيبت بي»[1] .

وجاء في حديث المناجاة لها، عند الإنتقال إلى الرفيق الأعلى قوله ﷺ : « أحسب أني ميت في عامي هذا، وأنه لم ترزأ امرأة من نساء العالمين مثلها، فلا تكوني دون امرأة منهن صبرا، فبكيت، فقال: أنت سيدة نساء أهل الجنة فضحكت»[2].

وذهب الحافظ ابن حجر رحمه الله أنها أفضل من بقية أخواتها؛ لأنهن متن في حياته ﷺ، فكنّ في صحيفته؛ وانتقل هوﷺ في حياتها فكان في صحيفتها! قال: وكنت أقول ذلك استنباطا إلى أن وجدت الإمام ابن جرير الطبري نص عليه . اهـ

قلت وفي الحديث شهادة من الحبيب ﷺ على أنّ أعلق النّاس وأشغفهم به حبّا، هي هذه السيّدة القديسة، وهو الشأو الذي كان يتنافس فيه كبار الصّحابة عليهم الرّضوان، كما في قصّة تنازع سيّدنا الصّديق مع سيّدنا علي في أيّهما أكثر حزنا وأسفا على فراق الحبيب ﷺ، ولكنّ النّص يشهد لها (عليها السّلام) بأنّها هي الأولى بذلك بجدارة واستحقاق .

[1] رواه البزار عن أم المؤمنين رضي الله عنها .

[2] رواه ابن جرير الطبري .

البيت المرفوع

الكثير منّا يسمع لفظ أهل البيت، ولا يدري معنى البيت ما هو، و ما دروا أنّ البيت هذا هو بيت النّبوّة، وركائز هذا البيت هم ساداتنا أهل الكساء الخمسة، كما ورد في حديث "صحيح مسلم" : «لمّا نزلت آية : (إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهلَ البَيتِ ويُطهِّرَكُم تَطْهِيرا) في بيت أمّ سلمة رضي الله عنها، دعا فاطمةَ وحسناً وحسيناً وخلّلهم بكساء، وعليٌّ خلف ظهره، ثمّ قال: اللهمّ هؤلاء أهلُ بيتي، وخاصتي فأذهِبْ عنهمُ الرجسَ وطهِّرْهم تطهيرا».

فلمّا كان قدر سيّد الوجود ﷺ مرفوعا عند ربه تعالى، رفع به كلّ من انتسب إليه، فلزم أن يكون بيته عظيما مجيدا، فشمل هذا الفضل هذه الذّريّة الطّاهرة إلى يوم الدّين، فصاروا يسمّون " أهل البيت" والفضل في ذلك كلّه يرجع لأمّهم الطّاهرة، التي هي واسطتهم إلى هذا الشّرف .

ومن مناقب السيّدة الزّهراء التي يجهلها كثير من النّاس، أنّ بيتها كانت حجرة من الحجرات النبويّة الشّريفة، التي نزلت فيها سورة " الحجرات" فحجرات أمّهات المؤمنين كانت تسعة والعاشرة هي حجرة السيّدة فاطمة وسيّدنا علي (عليهما السّلام) .

بل لمّا نزل قوله تعالى : (فِي بُيوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسْمُهُ) سئل سيّدنا رسول الله ﷺ : « أي البيوت هذه ؟ فقال : بيتي وبيت فاطمة وعلي »[1] .

[1] رواه ابن مردويه .

وهذا البيت هو الذي جاء فيه عَنْ سيّدنا سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ : « أَنّ النَّبِيَّ - ﷺ- سَدَّ أَبْوَابَ النَّاسِ فِي الْمَسْجِدِ وَفَتَحَ بَابَ عَلِيٍّ، فَقَالَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ ﷺ : مَا أَنَا فَتَحْتُهُ وَلَكِنَّ اللَّهَ فَتَحَهُ»[1] .

وجاء في الصّحيح : « كان بين علي وبين فاطمة عليهما السلام كلام فخرج من بيتها فأتى المسجد فنام في التراب، فأتى رسول الله ﷺ المسجد، وقال له يا أبا تراب ما نيمك له في التراب والله لحجرة بنت رسول الله ﷺ خير من التراب، فقام »[2] .

وانظر كيف سماها حجرة السيّدة فاطمة عليها السّلام، ولم يسميها باسم زوجها الكريم، لأنّ السّر هنا جاء من جهتها عليها السّلام .

وهنا إشارة خفيّة إلى أنّ حجرة السيّدة فاطمة عليها السّلام، أفضل من المسجد النّبوي، ولا غرابة في هذا، إذ أنّ العلماء اتّفقوا على أنّ أفضل بقعة في الكون هي التي حوت الضّريح الشّريف، والحجرات العشرة كلّها مقام كريم له ﷺ، ومن زار المقام الشّريف اليوم سيجده حجرة واحدة، ولها بابان : باب من جهة الواجهة الشّريفة، والباب الذي يسمى "باب فاطمة" .

ولا غرو فأهل الكساء هم المقدّسون الذين بهم رفعت المساجد، وذواتهم نور على نور، لاسيّما بعدما قال الحبيب ﷺ : «ألا لا يَحِلُّ هذا المسجدُ، لِجُنُبٍ ولا حائضٍ إلّا : لِرسولِ الله ﷺ وعليٍّ وفاطمةَ والحسَنِ والحسينِ، ألا قد بيّنتُ لكم الأشياءَ أن تَضلُّوا»[3].

---

[1] رواه أحمد وأبو يعلى .

[2] رواه البخاري وأحمد .

[3] الترمذي وأحمد .

آية المباهلة

ومن عظمة قدرها وخصوصيّة مكانتها، عند الله ورسوله ﷺ، أنّ الله سبحانه وتعالى انتخبها وهي امرأة لمباهلة الكفار، وما ذلك إلّا لطول جاهها، وعرض وجاهتها .

وذلك كما قال الإمام الشعبي رحمه الله : «كان أهل نجران أعظم قوم من النصارى قولاً في عيسى بن مريم، فكانوا يجادلون النبيﷺ فيه، .. فَدَعَاهُمَا إِلَى الْمُلَاعَنَةِ فَوَاعَدَاهُ عَلَى أَنْ يُغَادِيَاهُ بِالْغَدَاةِ فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمَا فَأَبَيَا أَنْ يُجِيبَاهُ وَأَقَرَّا لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْ فَعَلَا لَأَمْطَرَ الْوَادِي عَلَيْهِمَا نَارًا قَالَ جَابِرٌ: فِيهِمْ نَزَلَتْ: (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ) .

قَالَ جَابِرٌ: (وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلِيٌّ، وَ (أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، (وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ) فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »[1].

أجل فإنّ أهل الكتاب كانوا يعرفون قدر أهل البيت عليهم السّلام، لأنّه كان مشهورا عندهم في الكتب السّماويّة السّالفة، فلهذا لم يتجرّؤوا على المباهلة.

الثقل الأصغر عليها السّلام

ونجد مالك جوامع الكلم ﷺ يصف أهل البيت بـ"الثّقل " فيقول ﷺ : «إنّي أُوْشِكُ أَن أُدعى فأُجِيبُ، وإنّي تارِكٌ فِيكُم الثَّقَلَينِ : كتابَ اللهِ حَبلٌ مَمْدُودٌ

[1] رواه أحمد وابن ابي شيبة والبيهقي .

مِنَ السّماءِ إلى الأرضِ، وعِتْرَتي أهلَ بَيتي، وإِنَّ اللَّطِيفَ الخبيرَ أخْبَرَني : أنَّهما لنْ يَتَفرَّقا حتّى يَرِدا عليّ الحَوضَ. فانظُروا كيفَ تُخَلِّفُوني فِيهما»[1] .

وعليه فإنّ ساداتنا أهل البيت هم الثّقل الأصغر، وعلى رأسهم أمّهم الزّهراء عليها السّلام، ولكن يا ترى ما معنى " الثّقل " هنا ؟

يرجع لفظ الثّقل لمعنين : (القدر، والحق) فأمّا قدرهم فهو ثقيل الميزان عند الله ورسوله ﷺ، لدرجة أنّهم قرنوا بالقرآن العظيم .

وأمّا حقوقهم فإنّها ثقيلة الإلزام على المؤمنين، فولاؤهم ميثاق غليظ، أخذه الله تعالى علينا صريحا : (قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى) ويكفيك في ثقل حقّهم علينا أنّه مقابل لمكافأة الحبيب ﷺ على ما أمدّنا به .

وهنا يبدوا وجه المناسبة في القرن ما بين الثّقلين (القرآن والقربى) حيث لم يسأل الحبيب ﷺ أجرا على الثّقل الأكبر، إلّا الشّكرَ للثّقل الأصغر، فلك أن تتبصّر بهذه المعادلة الثّقيلة المعيار .

أخت التّنزيل

الكثير منّا لا يدرك صلة الزّهراء بالكتاب المبين، لأنّ سيرتها الشّريفة لم تصل إلينا تامّة كاملة، ولكن إذا نظرنا إلى حديث الثّقلين، وتأمّلنا في لفظ : «وإِنَّ اللَّطِيفَ الخبيرَ أخْبَرَني : أنَّهما لنْ يَتَفرَّقا حتّى يَرِدا عليّ الحَوضَ» سيدرك أنّ هناك وشائج نورانيّة، كانت تسري ما بين الثّقلين ـ القرآن والزّهراء ـ لم تسلّط عليها أضواء التّراجم .

[1] رواه مسلم في صحيحه .

فلا جرم أنّ الزّهراء (عليها السّلام) هي أخت التّنزيل، من بعدما قرن الحديث الشّريف بينهما، ونسبهما إليه حيث قال ﷺ : «وإِنِّي تارِكٌ فِيكُم الثَّقَلَيْنِ» فهما إرثه فينا، القرآن من قلبه الشّريف، والزّهراء من صلبه المنيف، بل وأكّد أنّهما متلازمان إلى أن يعودوا إليه مرّة أخرى، فقال ﷺ : « لنْ يَتَفَرَّقا حتّى يَرِدا عليّ الحَوضَ» .

وفي هذا التّلازم إشارة إلى أنّ نور القرآن العظيم سيظلّ مكنونا في أهل البيت إلى يوم الدّين، فأقدس بباطن الزهراء الذي كان ولا زال ولن ينفكّ عن وعاية ورعاية أسرار الكتاب المقدّس، الذي سرى من القلب المحمّدي إليها، ثمّ إلى بنيها، إلى أبد الآباد .

أبناؤها ينسبون للحبيب ﷺ

إنّ من الخصائص الفاطميّة التي بزّت بها غيرها، أنّ بنيها لا ينسبون إلى أبيهم، وإنّما ينسبون إلى أبيها سيّد الأنبياء والمرسلين ﷺ، فأضيفوا إليه تحقيقا بأمر الله تعالى، وكانوا هم ذريته الباقيّة إلى يوم يبعثون .

وهذا ما كان يعنيه مولانا رسول الله ﷺ بقوله : «إنّ لكلِّ بَنِي أبٍ، عُصبَةٌ يَنتَمُونَ إليها، إلّا ولدُ فاطِمَةَ ؛ فأنا وَلِيُّهُم، وأنا عُصبَتُهُم، وهم عِتْرَتِي، خُلِقوا مِن طِينَتِي »[1] .

فإنّ الأمر سرّ نبوّة، قبل كونه إرث بنوّة من أبوّة، فهذا تجلي من تجليات النّبوّة التي لا ندرك ماهيتها، وهو ما عبر عنه بالجعل في الحديث الآخر، فقال

[1] رواه الحاكم في مستدركه على الصحيحين .

روحي له الفداء : « إنّ الله جعل ذرية كلّ نبي في صلبه، وإنّ الله جعل ذريتي فى صلب علي بن أبى طالب»[1].

عـزُّ النّبـوّة لا المـلكُ ولا الحسَـبُ مجـدُ الرّسـالةِ مـا العلمُ ومـا الرُّتـبُ
ذاكم هـو المجـدُ والفخـار والـشّرفُ سـلالةٌ مِـن شـعاعِ القُـدس تلتهـبُ

فالعادة تقول أنّ الذّريّة هي ما تناسل من جهة الذّكور، ولكن الحقيقة النّبويّة تقول أنّ الزّهراء ليست كالنّساء، ولكنها كملت وصار لها حكم الكمّل من الرّجال، فكانت بمثابة الإبن لسيّد الوجود ﷺ، وكان أبناؤها ذريّة بالتّحقيق للحبيب ﷺ، فالتّأنيث في السيّدة البتول مجازي فقط، فهي إمرأة ولكنها فضلت على رجال الأمّة جميعا :

ولو كـنّ النساء كمثـل هذه لفضلت النساء عـلى الرّجال
فما التّأنيث لاسم الشّمس عيب ولا التّذكـير فخـر للهلال

الطّاهرة من الرّجس

إنّ من أعظم ما نزل في أهل البيت آية التّطهير، وهي قوله تعالى : (إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) والتي لما نزلت سئل عنها سيّدنا الورى ﷺ فقال : « أُنْزِلَتْ آيَةُ التطْهِيرِ : (إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فِيْ خَمْسَةٍ فِيَّ، وَفِيْ عَلِيٍّ وَحَسَنٍ وَحُسَيْنٍ وَفاطِمَةَ»[2].

[1] رواه الطبراني والخطيب .

[2] رواه مسلم في صحيحه .

ولكن وللأسف لم يغص النّاس في أعماق هذه الآية، ولكنهم لبثوا يتجادلون مع الشّيعة، هل أهل البيت معصومون أم لا، من دون طائل ولا جدوى من وراء ذلك .

أجل فالسيّدة الزّهراء عليها السّلام، لم تكن معصومة عصمة نبوّة، ولكنّها كانت محفوظة حفظ ولاية، فهي مطهّرة بنص الوحي الشّريف، ومن شهد له الله تعالى بالطّهارة أليس هو مقدّس الباطن ؟ بلى فهذه السيّدة قبس من إشعاعات النّبوّة، فكانت زهراءَ الظاهر والباطن، والسيرة عنوان السّريرة .

وفي الآية من معاني العظمة والتّبجيل ما يحار فيه لبّ البليغ، حيث أنّ الله تعالى يقول أنّ إرادتي تسهر على تطهيركم يا أهل البيت، ومهما علق شيء من أغيار الدّنا بكم، فإنّني سأطهركم بالنّورانية المحمّديّة الكامنة فيكم .

واتّفق أهل العلم في فهمهم للآية الكريمة، على أنّه لن يموت أحد من بني الزّهراء إلّا على التّوبة والصلاح، وأنّهم مطهرون من الكفر والنّفاق .

ولهذا لمّا رأى الإمام النهاوندي رحمه الله السيّدة فاطمة عليها السّلام في المنام، وكان قد زجر بعض أولادها الكرام، على ارتكاب الاثام، فلم تلتفت إليه فلمّا تاب إليها، قالت له :

حاشا بني فاطمة كلهم   من خسة في العرض أو من خنا

وإنما الأيام في غدرها   وفعلها السوء أساءت لنا

فتب إلى الله فمن يقترف   ذنبا بنا يأمن مما جنا

مختلف الملائكة

ومن خصائص هذا البيت النبوي الذي يتكون من أهل الكساء، أنّه مأرز لتنزلات الملائكة الكرام، وأنّهم عاشوا ما بينهم في حياة روحانيّة نبويّة، وكيف لا يهفو إليهم الملأ الأعلى، وإنّ إمام الحضرة ﷺ معهم .

فعن سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: لما جاء رسولَ الله ﷺ الأجلُ، فهبط ملك الموت، فوقف شبه أعرابي ثمّ قال: السلامُ عليكم يا أهلَ بيت النّبوة، و معدنَ الرسالة، و مختلفَ الملائكة، أدخلُ ؟ فقالت عائشة لفاطمة (عليها السلام) : أجيبي الرجلَ "[1]

بل إنّ الأمر في أقرب من ذلك، حتى في مداعبة الصبيان، كما روي عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، قَالَ : اصْطَرَعَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هي حسَنٌ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ : كَأَنَّهُ أَحَبُّ إلَيْك ؟ قَالَ : لاَ وَلَكِنَّ جِبْرِيلَ يَقُولُ : هي حُسَيْنٌ.[2]

فالظاهريون يفهمون أنّ الأمر مجرّد مداعبة وملاطفة، ولكنّ العارفين يدركون أبعادا عرفانيّة روحانيّة، لتلك المجالسات والمجانسات ..

بحر الزّهراء عليها السّلام

ومن الآيات التي وجّهت في حق السيّدة الزّهراء عليها السّلام، قول الله تعالى : (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان يخرج مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤ والمرجان) أنّ البحرين همّا سيّدنا علي والسيّدة فاطمة عليها السّلام،

---

[1] رواه الطبراني في معجمه .

[2] رواه ابن أبي شيبة .

والبرزخ الذي بينهما هو نور النّبوّة، (واللّؤلؤ والمرجان) هما الحسنان عليهما السّلام، وهذا من جهة التّفسير الإشاري .

ويؤيّده ما أخرجه ابْن مرْدَوَيْه والثّعلبي عَن سيّدنا ابْن عَبَّاس ﷺ : {مرج الْبَحْرين يلْتَقِيَانِ} عليٍّ وَفَاطِمَة {بَيْنهمَا برزخ لَا يبغيان} النَّبِي ﷺ {يخرج مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤ والمرجان} الْحسن وَالْحُسَيْن.[1]

ووجه الإشارة في هذا، أنّ سيّدنا علي ﷺ ورث جلال النّبوّة، والسيّدة فاطمة عليها السّلام ورثت جمال النّبوّة، وبينهما برزخ كمال النّبوّة، وخرج منهما نسلٌ جامع لمظاهر النّبوّة الثلاثة، إلى يوم الدّين .

ولقد أخرج الثعلبي عن محمد بن سيرين قال : نزلت هذه الآية: (وهو الذين خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا) في النبي ﷺ وفاطمة وعلي (عليهما السّلام) .

أكثر الأسماء شيوعا بين النساء

ومن خصائص السيّدة الزّهراء (عليها السّلام) التي دخلت بها إلى موسوعة الإعجاز، هو أنّ إسمها الشّريف هو أكثر الأسامي تسميّا ما بين النّساء، في جميع أنحاء العالم، بل ومنذ ظهور الإسلام، فلا تكاد تجد بيتا مسلما يخلو من إسمها (عليها السّلام)، بل قد تجد أكثر من إسم لها في عائلة واحدة .

ولقد تتبعنا الإحصائيات في كثير من البلدان، فوجدنا أنّ إسم السيّدة " فاطمة " هو أكثر أسماء النساء إنتشارا، كما أنّ إسم سيّدنا "محمّد" ﷺ

---

[1] الدّر المنثور في التفسير بالمأثور . الحافظ السيوطي . رحمه الله .

هو أكثر الأسماء إنتشارا بين الرّجال، فمثلا في (الجزائر، تركيا، سلطنة عمان، قطر) بل حتى في اسبانيا وهي دولة غربية بمعدل (18.493) .

فلله درّها أمّ أبيها (عليها السّلام) ما أشبهها به، حتى في كثرة انتشار إسمها الطّاهر، فحقّا إنّها بضعة منه ﷺ .

من كمالاتها عليها السّلام

وإنّ هناك منطلق مركزيّ في شخصيّة السيّدة البتول (عليها السّلام)، ولكنّه قلّ ما يعرج عليه ذوو الدراسات السّطحيّة، فمن قبل أن تكلّم على فضائلها الصفاتيّة ومناقبها المكتسبة، فلا بدّ أن نتوقّف هنيهة مع ذاتها قبل كلّ شيء، فنتساءل من هي ؟

هي بضعة من الذّات المحمّديّة، وهل هذه المزيّة هيّنة ؟ فلو عرفنا قدر الذّات المحمّديّة، سنعرف قدر البضعة الفاطميّة .

أليست هي ابنة الذّات الأحمديّة المعجونة بالنّبوّة، والممزوجة بالرّسالة، والمغموسة في أنوار القرآن، والمشحوذة بالأسرار الصفاتيّة، والمشحونة بالصّبغة الذّاتيّة ..، فيا ترى كيف ستكون تلك البضعة المتولّدة عن تلك الذّات المقدّسة ؟ .

وسنعرّج هنا على بعض تلك الكمالات الفاطميّة، المستوحاة من القرآن والسنّة، على قدر ما تتقبّله الأفهام :

زهراء بين أزهرين

إنّ المتبصّر في اسم الزّهراء يجده أعمق من الصّورة، فإنّها حقيقة مستغرقة في الغيب، منذ أن بزغت الأرواح من حضرة النّور المحمّدي، فالخلق في ذلك متفاوتون فأقربهم منه هناكم أقربهم منه هنا .

فحينما يقول المعصوم ﷺ عنها : "بضعة منّي" فإنّ المعنى أبلغ من الولادة الحسيّة، بل هو يشير إلى الولادة النّورانيّة هناك .

ويشهد لهذا ما رواه سيدنا سلمان قال سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول : «كنت أنا وعلي نورا بين يدي الله ﷻ، قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم قسم ذلك النور جزءين، فجزء أنا وجزء علي »[1]

أجل فالزهراء كانت برزخا ما بين هذين النّورين، فهي واسطة هذه الصّلة الرّوحانيّة، فلولاها ما وصل النّور المحمّدي إلى الحضرة العلويّة، ولهذا عاشت هاهنا ما بينهما، فترعرعت في حجر الحبيب ﷺ ثمّ زفّت إلى حجرة الإمام علي عليه السلام، ومن عاشت مابين الأزهرين فهي الزّهراء .

ويقول ﷺ مؤكدا لهذا المغزى : « النَّاسُ مِنْ شَجَرٍ شَتَّى، وَأَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ ».[2]

ولعلّ الحديث الشّريف يشير إلى الشّجرة التي ذكرت في قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا

---

[1] رواه الإمام أحمد في الفضائل ، وابن عساكر ، والديلمي ..

[2] الحاكم ، والطبراني والخطيب وابن عساكر .

فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) والتي فسّرها الحبيب ﷺ بقوله : « أنا الشجرة وفاطمة فرعها وعلي لقاحها والحسن والحسين ثمرتها»[١]

ويقول الألوسي رحمه الله في «روح المعاني» : رُوِيَ عن الإمام الباقر قدس الله سرّه : أنّ الشّجرة الطيّبة هي شجرة سيّدنا محمّدٍ ﷺ وآله .

مستودع الأسرار النبويّة

ومن كمالاتها عليها السّلام، أنّها كانت مستودع سرّ النّبوّة، وقد تجلى هذا في آخر العهد، حينما أسرّ عندها الحبيبﷺ خبر إنتقاله إلى الرّفيق الأعلى، دون بقيّة الصّحابة، كما روي عن أم المؤمنين رَضِىَ الله عَنْها، أنها قالت : ما رأيت أحدا كان أشبه كلاما، وحديثا من فَاطِمَة برسول الله ﷺ .. فدخلت عليه في مرضه الذي توفي فيه، فرحب بها، وقبلها، وأسر إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا، فإذا هي منهن، بينما هي تبكي إذ هي تضحك، فسألتها فقالت : إني إذا لبذرة .

فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها ، فقالت : أسرّ إلي وأَخْبَرَنِي أنه ميت، فبكيت، ثم أسرّ إلي وأَخْبَرَنِي أني أول أهله لحوقًا به فضحكت »[٢].

وفي رواية عن أم المؤمنين رَضِي الله عَنْها قالت : فلما قام رسول الله ﷺ قلت أخصك رسول الله ﷺ من بيننا بشيء، إني رأيتك تبكين، أخبريني ما قال لك، قالت : ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره [٣].

---

[١] رواه الحاكم في مستدركه على الصحيحين .

[٢] الحاكم وابن خزيمة في صحيحيهما.

[٣] رواه الحاكم النيسابوري

وإذا علمنا أنّ سرّ الأجل من الغيوب المكنونة المضنونة، والتي لا يؤتاها إلّا المكاشفون الكبار، فسندرك أنّ تخصيص السيّدة عليها السّلام بهذا السّرّ هو لشأن فيها .

بل هذا يفتح أمامنا آفاقا لاستنتاج ما كان يدور ما بين السيّدة الزّهراء وأبيها العظيم ﷺ، من سرائر وحقائق غيبيّة، لم يطالع عليها غيرها عليها السّلام، ولم تطالع هي عليها غيره ﷺ .

إنْ يَقُلْ ذُو العُلُومِ لا مَا رَوَيْنَا أَوْ يَقُلْ ذُو الشُّهُودِ قَطْ مَا رَأَيْنَا

قُلْ لَهُمْ إنّهَا حَرامٌ عَلَينا كَلاّ لَا لَنْ تَرَوْا لَها الدَّهْرَ عَيْنَا

تِلكَ مِن سِرِّ سِرِّ مَولانَا أحْمَدْ

حاملة الأثقال

ومن دقائق الإشارات التي وعتها جوامع الكلم، ما رواه سيّدنا مَعْقِل بْن يَسَارٍ، قَالَ: «وَضَّأْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ فِي فَاطِمَةَ تَعُودُهَا؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَيَّ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ سَيَحْمِلُ ثِقَلَهَا غَيْرُكَ وَيَكُونُ أَجْرُهَا لَكَ. قَالَ: فَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ شَيْءٌ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلام، فَقَالَ لَهَا: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدِ اشْتَدَّ حُزْنِي، وَاشْتَدَّتْ فَاقَتِي، وَطَالَ سَقَمِي.[1]

وبيت القصيد هو في قول الرّاوي : « فَقَامَ مُتَوَكِّئًا عَلَيَّ، فَقَالَ ﷺ : أَمَا إِنَّهُ سَيَحْمِلُ ثِقَلَهَا غَيْرُكَ وَيَكُونُ أَجْرُهَا لَكَ» فيا ترى ما هو هذا الثّقل ؟ ومن هو الذي سيحمل عنه الثّقل ؟

[1] رواه أحمد في مسنده .

إنّ سياق الحادثة هو الذي يحدّد لنا المعنيَّ هنا، فالقصّة فيها تلويح وتلميح إلى معان باطنة، فالظّاهر أنّه ثقل جسم الحبيب ﷺ، ويحمله سيّدنا معقل رضي الله عنه، ولكنّ المشار إليه، هو ثقل الإرث النّبوي، والذي يتحمله حقيقة هي السيّدة البتول عليها السّلام، فهي وحدها التي تستطيع أن تحمل ثقل النّبوّة .

ولهذا لمّا دخل عليها وجدها تعاني شدّة من البلاء، وذلك بقدر الإرث النّبوي، مصداقا للحديث الشّريف : « أشدّ النّاس بلاء الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل» ولا ريب أنّ السيّدة هي الأمثل في هذه الأمّة المحمّديّة .

فمن هنا ندرك سرّ علوّها، وأنّ لها سريرة مكنونة هي التي أهّلتها لتلك الرّتبة القعساء، وهي باختصار وراثة الحال النّبوي، ممّا وراء دلائل الرّسالة .

ولك أن تتدبّر في الرّابط ما بين لفظ : « سَيَحْمِلُ ثِقْلَهَا غَيْرُكَ » وبين لفظة : «وإنّي تارِكٌ فِيكُم الثَّقَلَينِ» فسترى اتّحادا في لفظ الثّقل، فالثّقلان هما ـ القرآن وأهل البيت ـ والذي في الحديث الأوّل هو الثّقل الأكبر ـ القرآن أي النّبوّة ـ والذي لا يستطيع أن يحمله إلّا الثّقل الأصغر، وهم أهل البيت .

تجلي الكساء النبوي

ومن الأسرار المحمّديّة التي تقدّست بها الذّات الفاطميّة، تجلي الكساء النّبوي، والذي يحار العارفون في ماهيته وكنهه، ومن ذا الذي يدرك ما يحويه كساؤه المقدّس من الأنوار والأسرار، سيّما وأنّه خاص بأهل الكساء الأربعة، الذين لا يضاهون في مقامهم العزيز .

فالمَجْدُ في حُجُورِهِم تَرَبَّى ... طافَ بِبَيتِ عِزِّهِم وَلَبَّى
وزَادَهُم مَجْلى الكِساءِ فَضْلًا ... فاتَّحَدُوا جُزْءًا بِهِ وكُلّا
والعَجَبُ العُجابُ فِيما يَحْوِي ... فَلَمْ يَزَلْ لِلآل دَوْمًا يُرْوِي

ولقد تعدّدت هذه الحادثة لما فيها من التجليات الربّانيّة، ولو كانت مجرّد إخبار بفضل لما تكرّرت هكذا، فمن رواياتها :

ما روي عن أبي هاشم، عن أمه، وكانت خادمة لسيّدنا رسول الله ﷺ، قالت : جاء رسول الله ﷺ وعلي وفَاطِمَة قائمان قد أضحت عليهم الشمس، وعليه كساء خيبري، فمده دونهما ثم قال : أحب حاضر وباد إلي»[1] .

وما ورد في صحيح مسلم عن أم المؤمنين عائشة قالت: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله معهم ثم قال : " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا " ».

وعن سيّدنا واثلة ابن الأسقع قال : طلبت عليا في منزله فقالت فاطمة: ذهب يأتي برسول الله ﷺ قال : فجاءا جميعا فدخلا ودخلت معهما فأجلس عليا عن يساره، وفاطمة عن يمينه والحسن والحسين بين يديه، ثم التفع عليهم بثوبه قائلا : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) اللهم هؤلاء أهلي، اللهم أهلي أحق قال واثلة : فقلت من ناحية البيت : وأنا من أهلك يا رسول الله ؟ قال : " وأنت من أهلي " قال واثلة: فذلك أرجا ما أرجو من عملي »[2] .

وما ورد في "صحيح مسلم" أنّه لمّا نزلت آية (إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهلَ البَيتِ ويُطهِّرَكُم تَطْهِيرا) في بيت أمّ سلمة رضي الله عنها، دعا

---

[1] الحاكم .

[2] الطبراني وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم

فاطمةَ وحسناً وحسيناً وخلّلهم بكساء، وعليٌّ خلف ظهره، ثمّ قال: (اللهمّ هؤلاء أهلُ بيتي، وخاصتي فأذهِبْ عنهمُ الرجسَ وطهِّرْهم تطهيرا) .

وما ورد عن إسماعيل بن عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه قال : لما نظر رسول الله ﷺ إلى الرحمة هابطة قال : " ادعوا لي ادعوا لي " فقالت صفية : من يا رسول الله ﷺ؟ قال : " أهل بيتي عليا وفاطمة والحسن والحسين " فجيئ بهم فألقى عليهم النبيﷺ كساءه ثم رفع يديه ثم قال : " اللهم هؤلاء آلي، فصلّ على محمد ﷺ وعلى آل محمد ﷺ " وأنزل الله عز وجل : " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا " [١] .

وفي مرة أخرى عن أم سلمة أن رسول اللهﷺ قال لفاطمة: إيتني بزوجك وإبنيك قالت : فجاءت بهم فألقى عليهم كساء مذكيا، ثم وضع يده عليهم فقال : " اللهم إن هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك و بركاتك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد " قالت أم سلمة : فرفعت الكساء لأدخل فيهم فجذبه من يدي وقال : " إنّك على خير ".

ومرّة أخرى تقول أمّنا أمّ سلمة رضي الله عنها : اعتنق رسول الله ﷺ عليا وفاطمة بيده وحسنا وحسينا بيده وعطف عليهم خميصة كانت عليهم سوداء وقبل عليا وقبل فاطمة ثم قال : اللهم إليك لا إلى النّار أنا وأهل بيتي قلت : وأنا قال: وأنت . [٢]

---

[١] رواه الحاكم : وقال صحيح على شرط الشيخين.

[٢] الطبراني وأبو الشيخ وأحمد والدولابي

فباستقراء هذه الروايات المختلفة، نستنتج أنّ هذا التجلّي الكسائي قد تعدّد، وهذا يعني تعدّد التّجليات بتعدّد القابليات والاستعدادات، ولكلّ تجلّ مذاقه الخاص .

طوبى مظهر للزهراء

فَطُوبى مِن ثِمارِ نَعْلِ الزَّهْرا   دائِيَّةٌ ظِلَالُها ازْدِهارا

ومِن رَحِيقِ رِيقِها الحِيَّاضُ   ومِن عَبِيقِ عَرْقِها الرِّياضُ

يقول العارف بالله سيدي أفضل الدين الأحمدي: شجرة طوبي في منزل الإمام علي بن أبي طالب ﵇، وهي حجاب مظهر نور فاطمة الزهراء رضي الله عنها فما من جنة، ولا درجة، ولا بيت، ولا مكان إلا وفيه فرع من شجرة طوبي وذلك ليكون سر نعيم كلّ درجة ونصيب كل ولي فيها من نورانية فاطمة في حجاب ذلك الفرع[1].

ولعزّتها ورد ذكر طوبى في القرآن الكريم مرّة واحدة، في سورة الرّعد حيث قال تعالى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) .

وورد في الحديث الشّريف : «طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ غَرَسَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ تُنْبِتُ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَإِنَّ أَغْصَانَهَا لِتُرَى مِنْ وَرَاءِ سُورِ الْجَنَّةِ» .

وجاء اعرابي الى سيّدنا رسول الله ﷺ فقال : «يارسول الله ﷺ أفي الجنة فاكهة قال : نعم فيها شجرة تدعى طوبى هي نطاق الفردوس ».

[1] الطبقات الكبرى للشعراني

وَيشهد لهذا الحقيقة الكشفيّة ما روي عن الإمام أَبِي بَكْرٍ الْأَصَمّ رحمه الله: أَنَّ أَصْلَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فِي دَارِ سيّدنا النَّبِيّ ﷺ وَفِي دَارِ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْهَا غُصْنٌ [1].

ويقول العارف بالله اسماعيل حقي الخلوتي : إن الله تعالى خلق جنة عدن بيده من غير واسطة، وجعلها له كالقلعة للملك وجعل فيها الكثيب مقام تجلى الحق سبحانه وفيها مقام الوسيلة مقام المصطفىﷺ وغرس شجرة طوبى بيده فى جنة عدن وأطالها حتى علت فروعها سور جنة عدن ونزلت مظللة على سائر الجنات كلها، وليس فى أكمامها ثمر الا الحلي والحلل لباس اهل الجنة وزينتهم زائدة فى الحسن والبهاء، وهى اجمع الحقائق الجنانية نعمة وأتمها بركة، فانها اصل لجميع أشجار الجنة، وما فى الجنة نهر الا وهو يجرى من اصل تلك الشجرة، وهى محمدية المقام وهى فى الدار النبي ﷺ ثم تنقسم فروعها على جميع منازل اهل الجنة، كما انتشر منه العلم والايمان على جميع اهل الدنيا . اهـ[2]

ولا تعارض هنا بين كونها ـ شجرة طوبى ـ في المقام المحمّدي والمقام الفاطمي، لأنّها حضرة واحدة، لا فرق بينهما .

حضورها عليها السّلام للدّيوان

وهذا الغوث سيدي عبد العزيز الدّباغ يكشف لنا حقيقة من حقائق ديوان الصّالحين فيقول رضي الله عنه: وإذا حضر سيد الوجود ﷺ مع غيبة

[1] تفسير " فتح الغيب " للفخر الرّازي رحمه الله ..

[2] روح البيان في تفسير القرآن . بشيء من التّصرف ..

الغوث، فإنه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين وأمها فاطمة الزهراء، تارة كلهم وتارة بعضهم رضي الله عنهم أجمعين.

قال: وتجلس مولاتنا فاطمة مع جماعة النسوة اللاتي يحضرن الديوان في جهة اليسار كما سبق، وتكون مولاتنا فاطمة أمامهن رضي الله عنها.

وقال رضي الله عنه: وسمعتها رضي الله عنها تصلي على أبيها ﷺ ليلة من الليالي وهو تقول: اللهم صل على من روحه محراب الأرواح والملائكة والكون، اللهم صل على من هو إمام الأنبياء والمرسلين، اللهم صل على من هو إمام أهل الجنة عباد الله المؤمنين. وكانت تصلي عليه ﷺ لكن لا بهذا اللفظ، وإنما أنا استخرجت معناه، والله أعلم اهـ [1].

قلت وفي هذا دلالة على أنّ لها التّصريف التّام في كلّ زمان، وأنّ سلطتها أكبر من سلطة أهل الديوان، الذين هم مسئولون عن نواميس التّصريف في الدّنيا والدّين .

أوّل قطب في الأمّة

ومن كمالات السيّدة البتول عليها السّلام، والتي كشف عنها أهل البصائر، أنّها أوّل من حاز رتبة القطبية الكبرى، بعد انتقال سيّدنا ومولانا الحبيب ﷺ، وغياب شمس النّبوة عن الأمّة، حيث أنّه لن يرث سرّ النّبوّة مباشرة إلّا نبيّ أو بضعة نبي، كما يقول أهل الله تعالى، وهذا مع غير سيّدنا النبي ﷺ ، فكيف بمن سيرث سيّد الأنبياء والمرسلين ﷺ، يا ترى كيف سيكون مقامها .

---

[1] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز.

قَدْ غَدَتْ تَقْتَنِي كُنُوزَ أَبِيْهَا مِنْ قَوامِسِ كُنْهِهِ تَجْنِيْهَا

حتّى صارَ البُطُونُ يَكْمُنُ فِيها كُلَّمَا يَدَّلِي فَمِنْهَا إِلَيْهَا

جاذِباتُ البَتُولِ أَقْوَى وأَوْحَى

ويقول القطب سيدي محمّد عبد الكبير الكتاني قدّس الله سرّه : وأول من حصل على مقام الخلافة الباطنية المُعبَّر عنها بالسّر الذاتي، وبقطبية العالم، وبمركز كرّة الدوائر: مولاتنا فاطمة الزهراء رضوان الله عليها، وقد أرشد سيدنا ﷺ لهذا حيث كان يُمصُّها لسانَه، ويُجلسها في مجلسه.

وأما الخلافة الظاهرية فأول من ورثها الصِّديق الأكبر، ومن مولاتنا فاطمة إليه انتقل السّر الذاتي الباطني، وقد أومأ سيدنا ﷺ بقوله : مروا أبا بكر فليصل بالناس إلى رتبته في الخلافة الظاهرية الملكية، وأما الخلافة المُعنون عنها بسر الذات وهو مضمون ما للموروث في الجملة هنا فما ظفر به إلاّ بعدها، وقد أرشدنا جلت عظمته بقوله : (ووالد وما ولد) لهذا المعنى ولم يقل وما صاحَبَ. اهـ[1]

وارثة النّبوّة

تحقّق عندنا أنّ الولاية المحمّديّة قد سرت في العترة، كما سرت النّبوّة في بني اسرائيل، وأنّ سيّد الوجود ﷺ لم يورّث الآثار والأغيار، ولكن ورّث الأنوار والأسرار، لقوله ﷺ : «إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» .

[1] الطلاسم للامام الكتاني

فلهذا لم يرث أهل بيته منه لا مالا ولا دارا، لأنّ إرثه من جنس الرّسالة والنّبوّة والعبوديّة، فيزول الإشكال عندئذ، في قضيّة الميراث النّبوي التي شَغَلَتِ الطوائف حينا من الدّهر .

مَجْـدُها القَـرْعُ عَـنْ مَقـامِ الرِّسـالَهْ فَهْـيَ ذاتُ الجَـمالِ عَـينُ الجَـلَالَهْ
وَرَثَـتْ كَـنْزَ ذاتِـهِ بالأَصـالَهْ ولِذا لَـمْ تَـرِثْ هُنَـا أَمْـوالَهْ
تَتَغَـنَّى بالذّاتِ والقَـدْرُ راسِخْ

ونجد البعض يظنّ أنّ مواريث النّبوّة متساويّة في الأمّة، ولكنّ القرآن الكريم يحصر إرث الأنبياء الخاص في ذريّتهم، فيقول تعالى : (ذريّة بعضها من بعض)، ويقول تبارك : (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) .

وهاهو سيّدنا زكرياء عليه السلام يقول :(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) وانظر كيف حصر الإرث الباطني الخاص في ذريته، فلا شكّ أنّ الميراث المعني في الحديث السّابق : (وإنّما ورثوا العلم) هذا ميراث عام، ولكن الميراث الخاص فله خواص، وهم أهل الكساء الكرام عليهم السّلام، ثمّ الأمثل فالأمثل ..

وتأمّل في قوله تعالى : (يرثني ويرث من آل يعقوب) فيا ترى أين آل سيّدنا محمّد ﷺ ؟، وأين إرث سيّدنا محمّد ﷺ ؟

ولمّا أدركت السيدة فاطمة (عليها السّلام) هذا السّر، أتت بابنيها في اللّحظة الأخيرة، فقالت يا رسول اللهﷺ انحلهما، قال نعم : أمّا الحسنُ فقدْ نَحَلتُهُ حِلْمِي وهَيْبَتِي، وأمّا الحسينُ فقدْ نحلتُهُ نَجدتِي وجُودي .[1]

ومن هنا باتت الأسرار المحمّديّة تسري في الذّريّة الطّاهرة، حتّى جزم بعض العارفين بالله تعالى، أنّ الغوثيّة لا تكون إلّا فيهم، لكونها تمثّل القدم المحمّدي، وقال آخرون لا بأس أن تكون في غيرهم، ودفعت هذا الإعتراض فقلت :

والغوث إن لم يأتي منهمُ فهُوْ ينــوب في التّصريف عن مولاه
لِكَــونِها مِن رُتْبَــةِ النُّبُوَّه لا تُــؤتَى إلّا لِذَوِي الفُتُــوَّه

ولهذا كان منها الإمام المهدي عليه السلام والذي هو خاتم الولاية، كما أنّ سيّد الوجود ﷺ هو خاتم النّبوّة، فقال لها ﷺ : أبشِري يافاطمةُ، المهديُّ مِن ولَدِكِ .[2]

وفي حديث أبي داوود : الْمَهْدِيُّ مِن عِترتي، مِن ولَدِ فاطمةَ.

وفي حديث أبو نعيم عن سيّدنا عليّ رضي الله عنه قال : قلت: يا رسولَ الله ﷺ أَمِنا آلُ محمّدٍ المهديُّ ، أم مِن غيرِنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا، بل مِنّا، بنا يَختم الله به الدّين، كما فتَحَ بنا .

---

[1] رواه الطبراني وابن عساكر.

[2] رواه ابو نعيم وابن عساكر.

فصل منه

بل إنّ سيدي الغوث عبد العزيز الدبّاغ يقول كما في [الإبريز] : في تأويل الرّؤيا التي من حديث سيّدنا ابن عباس في البخاري :

«أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ فِي الْمَنَامِ .. وَإِذَا سَبَبٌ وَاصِلٌ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ فَأَرَاكَ أَخَذْتَ بِهِ فَعَلَوْتَ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا بِهِ، ثُمَّ أَخَذَهُ رَجُلٌ آخَرُ فَعَلَا بِهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِهِ رَجُلٌ آخَرُ فَانْقَطَعَ ثُمَّ وَصَلَ .

فقال قدّس الله سرّه : وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنَ الأَوْلِيَاءِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: الطَّائِفَةُ الحُسَيْنِيَّةُ إِلَى أَنَّ هَؤُلاَءِ الأُمَرَاءِ أَشْرَافٌ مِنْ ذُرِّيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، تَجْتَمِعُ الكَلِمَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ عَلَى اثْنَيْنِ مِنْهُمْ، وتَجْتَمِعُ عَلَى الثَّالِثِ، ثُمَّ تَفْتَرِقُ، ثُمَّ تَجْتَمِعُ، وَهُوَ المُرَادُ: "بِالقَطْعِ وَالوَصْلِ".

قَالَ: وَالمَقْصُودِ بِالرُّؤْيَا مَا عَلَيْهِ هَذِهِ الطَّائِفَةُ؛ فَإِنَّ مَقَامَ النَّبِيِّ ﷺ عَظِيمٌ، وَلاَ يَطَأُ فِي مَوْضِعِهِ، وَيَصْعَدُ فِي مِرْقَاتِه، إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ وَلَدُ نَبِيٍّ؛ وَلَمَّا كَانَ الحَبْلُ وَاحِداً، وَصَعِدَ فِيهِ الأُمَرَاءُ الثَّلاَثَةُ كَصُعُودِهِ ﷺ فِيهِ، آذَنَ ذَلِكَ بِأَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأُمَرَاءِ الثَّلاَثَةِ مُجَانَسَةٌ، وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ إِيمَانَهُ الكَامِلُ لاَ يُجَانِسُهُ فِيهِ أَحَدٌ، فَلَمْ تَبْقَ المُجَانَسَةُ إِلاَّ فِي نَسَبِهِ، وَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي الأُمَرَاءِ الأَشْرَافِ المَذْكُورِينَ، فَإِنَّ مَوْضِعَ الوَاحِدِ وَدَارَهُ، لاَ يَدْخُلُهُ إِلاَّ هُوَ أَوْ وَلَدُهُ".

أَلَيسُوا هُمْ بَقِيَّةُ المختارِ حَمَلَةُ الأنوارِ والأسْرارِ
قَد تَرَكَ المِيراثَ فِيهِم يَسْرِي فَقَسْمُهُ على يَدَيهِم يَجْرِي
فهُم خَزائِنٌ لَهُ قَواسِمْ ضِمْنَ نَوامِيسِ مِنَ الطَّلاسِمْ

من كراماتها عليها السّلام

يقول ساداتنا العارفون : " الإستقامة أعظم من ألف كرامة " ولكن مهما يكون فإنّ الكرامة هي من فصيلة الفتح الربّاني، التي بها يتميّز المقرّبون عن عامة الخلق .

وإنّه ما من زمان إلّا وللزهراء عليها السّلام فيه شؤون وشجون، وخاصّة مع ذريّتها الطّاهرة، حيث لا زالت ترعاهم بعنايتها الخاصّة، وسنضرب هنا نماذج من كراماتها مفرّقة حسب قرون الأمّة المحمّديّة :

فمن ذلك ما روي عَنْ مولاتنا أُمِّ سَلْمَةَ رضي الله عنها قَالَتِ: اشْتَكَتْ فَاطِمَةُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَكْوَاهَا الَّتِى قُبِضَتْ فِيها، فَكُنْتُ أُمَرِّضُهَا، .. وَاضْطَجَعَتْ وَاسْتَقْبَلَتِ الْقِبْلَةَ وَجَعَلَتْ يَدَهَا تَحْتَ خَدِّهَا، ثُمَّ قَالَتْ: يَا أُمَّهْ إِنِّى مَقْبُوضَةٌ الآنَ، وَقَدْ تَطَهَّرْتُ فَلاَ يَكْشِفُنِى أَحَدٌ، فَقُبِضَتْ مَكَانَهَا، قَالَتْ: فَجَاءَ عَلِيٌّ فَأَخْبَرْتُهُ »[1]، وهذا يدلّ على مكاشفتها لساعة وفاتها .

ومنها ما روي عن سيّدنا عمـران بن حصين ﷺ، قال : كنـت مع رسول الله ﷺ إذ أقبلت فَاطِمَة عليها السَّلام فوقفت بين يديه، فنظر إليها رسول الله ﷺ، وقد ذهب الدم من وجهها، وعلت الصفرة على وجهها من شدة الجوع، فقال ﷺ : ادني يا فَاطِمَة، فدنت حتى قامت بين يديه، فرفع يده، فوضعه على صدرها في موضع القلادة وفرج بين أصابعه، ثم قال : اللهم مشبع الجاعة، ورافع الوضعة، لاتجع فَاطِمَة بنت مُحَمَّد ﷺ .

---

[1] رواه أحمد .

قال عمران : فنظرت إليها وقد ذهبت الصفرة من وجهها، وغلب الدم كما كانت الصفرة غلبت على الدم ، قال عمران : فلقيتها بعد فسألتها ، فقالت : ما جعت بعدُ يا عمران. (الحاكم)

فكأنّه قوله ﷺ : أورثها من مقام (إني أبيت عند ربي يطعمني) فكان أكلها وشربها أنوار النبوّة السّاريّة من أبيها ﷺ إليها.

وروى الحافظ أبو يعلى عَنْ سيّدنا جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقَامَ أَيَّامًا لَمْ يُطْعَمْ طَعَامًا حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَطَافَ فِي مَنَازِلِ أَزْوَاجِهِ فَلَمْ يُصِبْ عِنْدَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ شَيْئًا، فَأَتَى فَاطِمَةَ فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ آكُلُهُ فَإِنِّي جَائِعٌ؟ فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُعِثَتْ إِلَيْهَا جَارَةٌ لَهَا بِرَغِيفَيْنِ وَقِطْعَةِ لَحْمٍ فَأَخَذَتْهُ مِنْهَا فَوَضَعَتْهُ فِي جَفْنَةٍ لَهَا وَغَطَّتْ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَأُوثِرَنَّ بِهَذَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِي وَمَنْ عِنْدِي، وَكَانُوا جَمِيعًا مُحْتَاجِينَ إِلَى شَبْعَةِ طَعَامٍ، فَبَعَثَتْ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: لَهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي قَدْ أَتَى اللَّهُ بِشَيْءٍ فَخَبَّأْتُهُ لَكَ، قَالَ: هَلُمِّي يَا بُنَيَّةُ، فَكَشَفَتْ عَنِ الْجَفْنَةِ فَإِذَا هِيَ مَمْلُوءَةٌ خُبْزًا وَلَحْمًا، فَلَمَّا نَظَرَتْ إِلَيْهَا بُهِتَتْ وَعَرَفَتْ أَنَّهَا بَرَكَةٌ مِنَ اللَّهِ فَحَمِدَتِ اللَّهَ وَصَلَّتْ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ وقدمته إلى رسول الله ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ حَمِدَ اللَّهَ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لك هذا يا بنية؟ قالت: يا أبت هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَقَالَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَكِ يَا بُنَيَّةُ شَبِيهَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّهَا كَانَتْ إِذَا رَزَقَهَا اللَّهُ شَيْئًا فَسُئِلَتْ عَنْهُ قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ

يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَبُعِثَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إِلَى عَلِيٍّ ثُمَّ أَكَلَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَعَلَى وَفَاطِمَةُ وَحَسَنٌ وَحُسَيْنٌ، وَجَمِيعُ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ وَأَهْلُ بَيْتِهِ جَمِيعًا حَتَّى شَبِعُوا، قَالَتْ: وَبَقِيَتِ الْجَفْنَةُ كَمَا هِيَ، فَأَوْسَعَتْ بَقِيَّتَهَا عَلَى جَمِيعِ جِيرَانِهَا، وَجَعَلَ اللّهُ فِيهَا بَرَكَةً وَخَيْرًا كَثِيرًا .

ومنها عن سيّدنا أنس بن مالك، عن أمه قالت : لم تر فَاطِمَة رَضِيَ الله عَنْها دما في حيض ولا نفاس .

وعن مولاتنا زينب بنت جحش رضي الله عنها، أن النبي ﷺ دخل على فَاطِمَة غداة من الغدوات، وهي متغيّرة النفس، فقال لها : يا ابنتي مالي أراك خبيثة النفس ؟ قالت : يا أبتاه قد أصبحنا، وليس عندنا شيء، وحسن وحسين بين أيدينا قائمين، وعلي جاث. فحمد الله، ثم قال : أيقظيهم، فجلسوا ، فقال : هاتي ذاك الطربان . فالتفتت ، فإذا طربان خلفها، قال : ضعيه، فوضعته ، ثم قال : كلوا بسم الله . فبينا هم يأكلون ، إذ جاء سائل ، فقام على الباب ، فقال : السّلام عليكم أهل البيت أطعمونا مما رزقكم الله ، فرد عليه النبي ﷺ : يطعمك الله يا عبد الله .

فمكث غير بعيد ، ثم رجع ، فقال مثل ذلك، ثم ذهب، ثم رجع ، فقالت فَاطِمَة : يا أبتاه سائل ؟! فقال : يا ابنتي ! هذا الشيطان : جاء ليأكل من هذا الطعام ، ولم يكن الله ليطعمه من طعام الجنة .[1]

[1] رواه الحاكم النيسابوري

رؤياها في اليقظة

ومن أعجب كراماتها (عليها السّلام) ظهورها لمن استغاث بها جهارا، ولقد اجتمعت ـ ولله الحمد ـ بكثير من الصّالحين رجالا ونساء، ممّن شاهدوا سيّدتي الزّهراء (عليها السّلام) يقظة مباشرة، ومثال ذلك :

ما حكي عن الشيخ محمد الفاسي الشاذلي الحسني [1] أنه رأى جدته الزّهراء (عليها السلام) يقظة في الحجرة النبوية، بالمدينة المنورة .

وحكى لي بعض من التقيته من الصّالحين من أهل بلدنا، وكان شديد التّعلق بأهل البيت، أنّه يتربّى على يد السيّدة (عليها السّلام) وكم من ليلة ينام على حجرها المبارك .

وحكى لي بعض الصّالحين من أهل ليبيا، أنّه كان في أشدّ الاشتيّاق إلى رؤية الحبيب ﷺ، وذات مرّة أصابه وعك شديد، طرح به فراشا في المستشفى، لحار الأطبّاء في حالته، وبينما هو كذلك بلا حركة ولا كلام، إذ سمع هاتفا ربّانيا يخاطبه، فقال في نفسه أنّى لي بهذا، فلا بدّ لي من واسطة سيّد الوجود ﷺ، فما أن أتمّ خاطره، إذ دخل عليه الحبيب ﷺ إلى غرفته عيانا، فأشرق المكان بأنواره، وارتعدت فرائصه من عظمته، وقال لولا أنّني طريح فراش لهربت من هول ما رأيت، ثمّ قال في نفسه لا بدّ لي من واسطة سيّدتي الزّهراء (عليها السّلام) فلم يتمّ خاطره حتّى دخلت عليه، من باب الغرفة، ويقول لي وهو يبكي :

---

[1] كان حياً سنة ١٢٨٤ هـ، وهو شيخ الأمير عبد القادر.

سبحان من خلقها وأبدعها، فلقد ذهلت وتهت في جمالها، وبقيت شاخصا ببصري في ملامحها اللّطيفة، فو الله لو جمع جمال نساء العالم كلّه، لم يساوي طرفة أشفارها .. وفي القصّة طول، ولقد استأذنته في حكايتها فأذن لي، وهو الآن لا زال حيّا، ويعمل موظفا في أحد المؤسسات .

رؤياها في المنام

وأمّا رؤياها في المنام والتي تعدّ من مبشرات النّبوّة، فلا تكاد تنقطع ساعة عن هذه الأمّة، سواء لمن يحبونها، أو لمن يستغيثون بها، أو لمن يتربّون على حجرها ..، ومن ذلك مثلا :

قال سيدي ابن عربي قدس الله سرّه [الفتوحات المكيّة] : لقد أخبرني الثقة عندي بمكة، قال: كنت أكره ما تفعله الشرفاء بمكة في الناس. فرأيت في النوم فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهي معرضة عني، فسلمت عليها وسألتها عن إعراضها، فقالت: إنك تقع في الشرفاء؛ فقلت لها: يا ستي ألا ترين ما يفعلون في الناس؟ فقالت: أليس هم بنيّ؟ فقلت: من الآن؛ وتبت؛ فأقبلت عليّ واستيقظت.

فلا تعدل بأهل البيت خلقاً فأهل البيت هم أهل السيادة

فبغضهم من الإنسان خسر حقيقيّ وحبهم عباده

وحكى العلامة ابن حجر الهيتمي عن التقي الفارسي عن بعض الأئمة أنه كان يبالغ في تعظيم الأشراف، فسئل عن سبب تلك المبالغة فقال: إن شخصا من الأشراف يقال له مطير قد مات وكان كثير اللعب واللهو فتوقف

الأستاذ عن الصلاة عليه فرأى النبي ﷺ في المنام ومعه فاطمة الزهراء فأعرضت عنه فاستعطفها حتى أقبلت عليه وعاتبته وقالت له : أما يسع جاهنا مطيرا .

وحكي عن الشيخ امحمد الكنتي رحمه الله أنّه كان يتمنّى أن يرى السيّدة الزهراء (عليها السّلام) ولكن بلا جدوى، فأتى ببعض أبناء الأشراف الذين يدرسون عنده وضربه، فجاءته السيّدة (عليها السّلام) بالمنام، تنتصر لابنها الشّريف، فطفق الشيخ يعتذر لها، وقال ما فعلت ذلك إلّا لأراك فقط، فإنّني سمعت أنّك لا بدّ وأن تنتصري لذريّتك، فلما أفاق قام بإكرام ذلك الشّريف واعتذر له ..

ولقد اقتصرت في كراماتها (عليها السّلام) على ما تتقبّله العقول، لأنّنا في زمان كثر فيه التّنكير والجحود .

ولاء الزهراء عليها السّلام

إنّ ولاء الزّهراء من قبل أ ن يفرضه علينا الشّرع الحنيف، هو واجب علينا بالفطرة، فحقيق بصاحبة ذلك الحسن والإحسان، أن تعشق وتشكر وتقدّس، ولكن هذا وذاك (لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) ومن لا قلب ولا لبّ له، فلا نقاش لنا معه !.

هَيَّـا يا قَـومِي لِلـوَلاءِ هَيّـا لَعَلّـكُم تُسْـقَونَ منـهُ رَيّا

فـإن يَفُـتْكُمُ الـوَلاَءُ لِلْبَتُـولْ فَقَـدْ حُـرِمْتُمُ القَبُـولَ والدُّخُـولْ

فَحُبُّهـــا أُنـــسٌ وأَيُّ أنـــسٍ وَوَصْـلُها قُـدْسٌ وأَيُّ قُـدسِ

حبّ الزّهراء (عليها السّلام)

اعلم أنّ ديننا دين حقوق لا واجبات، فحبّ هذه السيّدة هو حقّها علينا، لأنّها بمثابة الأمّ الكبرى للأمّة، وكيف لا ونفحاتها ورحماتها لا زالت تترى علينا، ولهذا فرضها علينا الدّين القويم، حيث يقول الحق تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى) .

فعن سيّدنا ابن عباس ﷺ : أنهم قالوا يا رسول اللهِ ﷺ مَن قرابَتُكَ هؤلاءِ الذين وَجَبت علينا مَودتهم؟ قال : (عليٌّ وفاطمةٌ وابناهما).[1]

وعن سيّدنا أنس ﷺ قال : جاءت فَاطِمَة ومعها الحسن والحسين إلى النبي ﷺ في المرض الذي قبض فيه فأكبت عليه فَاطِمَة وألصقت صدرها بصدره وجعلت تبكي فقال النبي ﷺ : مه يا فَاطِمَة ونهاها عن البكاء فانطلقت إلى البيت فقال النبي ﷺ وهو يستعبر الدموع : اللهم أهل بيتي وأنا مستودعهم كل مؤمن ثلاث مرات[2] .

ألا وإنّ الحبّ معنى لطيف يسري في القلوب، ولا علاقة له بالجوارح والعقول، فتحتاج أن نحرّره ونستشعره في أفئدتنا، ويعتبر ما دونه من النوايا والأعمال كلّهم فرع عنه، وهو الرّوح القائم في الدّين .

فيا من تدّعي حبّ مولاتنا الزّهراء (عليها السّلام) بمجرد الأقوال أو الأفعال، فأنت لا زلت مفرّطا في واجب الوجدان، فالحبّ يستلزم الأشواق

[1] رواه أحمد والطبراني .
[2] رواه الحاكم في مستدركه .

والأشجان والدّموع والمدائح والصّلوات والمدائح ..، أمّا إتّباعها فهذا يعنيك أنت، ولا يعنيها هي بشيء .

توقيرها (عليها السّلام)

ومن حقوق سيّدتنا اللازمة علينا، أن نعظمها ونبجّلها كلّما مرّ ذكرها على ألسنتنا وخواطرنا، فإنّها أقدس إمرأة عبرت التاريخ، سيّما وأنّ الحبيب ﷺ حثّنا على التزام الأدب معها في أكثر من مرّة، فمثلا حينما يقول ﷺ: «فاطمةٌ بَضعةٌ مِنّي يَقبِضُني ما يَقبِضُها، ويَبسطُني ما يَبسُطها»[1] .

ويقول حبيبنا ﷺ مرّة أخرى : «يا فاطمةُ إنّ اللّهَ يَغضبُ لغضبِكِ، ويرضى لِرضاكِ »[2].

وكأنّه هنا يؤسّس لفريضة التّوقير والإحترام للسيّدة الزهراء (عليها السّلام) ولقد وعى السّلف الصّالح هذا جيّدا، فكانوا يراعون لشعورها لئلا تغضب، وتجدهم يحترمون ذريتها لكيلا تغضب هي في برزخها .

ولكنّنا اليوم وللأسف أبتلينا بشرذمة شاذّة يتعمّدون الإساءة إلى جنابها الشّريف، وتراهم لا يروق لهم إلّا حديث : (لو أنّ فاطمة بنت محمدﷺ سرقت لقطعت يدها) وحاشاها ومليار حاشا، ولكنّ هذا الحديث ـ رغم صحته ـ ما سمعناه من مشائخنا الرّبّانين قط، وما سمعناه إلّا يوم خرج علينا هؤلاء الخوارج من أنفاق القنوات والإنترنت .

[1] رواه أحمد والحاكم ..

[2] رواه الطبراني وأبو يعلى والحاكم .

السّلام عليها (عليها السّلام)

ومن حقوق مولاتنا (عليها السّلام) علينا، أن نصلي ونسلم عليها، امتثالا لأمر الشّارع ﷺ حينما علّمنا الصّلاة فقال : (قولوا اللّهم صلّ على محمّد، وعلى آل محمّد ..) ولقد نهى المعصوم ﷺ عن الصّلاة البتراء، في كثير من الأحاديث الشّريفة .

فلزم من ذلك أن لا نذكر اسم مولاتنا الزّهراء مجرّدا، بل لا بدّ أن نردفه بالسّلام عليها، ولا غرو من ذلك، فها نحن نسلم على السيّدة مريم، وسيّدنا لقمان، وسيّدنا ذي القرنين عليهم السّلام، وهم ليسو بأنبياء .

بل إنّ الصّلاة والسّلام عليها وعلى عترتها من سنن الصّلاة، بل من واجباتها عند الإمام الشّافعي رضي الله عنه حيث يقول :

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

ودليله في ذلك الحديث المشهور : " من صلى صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه.[1]

ولقد نهج السّلف الصّالح على ذلك، كلّ ما مرّ بهم ذكر أهل الكساء (عليهم السّلام)، ومثال ذلك :

(صحيح البخاري) ومن تتبع مواضع التسليم على أهل البيت فيه، سيجدها في أكثر من ثلاثين صفحة، وفي بعض الصّفحات تكرر أكثر من مرة، ومثال ذلك :

[1] رواه الدارقطني والبيهقي في سننهما .

صحيح البخاري (٢/٢٤٣) كتاب الكسوف باب تحريض النبي (ﷺ) على صلاة الليل والنوافل من غير ايجاب وطرق النبي(ﷺ) فاطمة وعلياً عليهما السلام ليلة للصلاة.

(والحافظ عمر بن شاهين) في كتابه فضائل سيدة النساء لايذكر اسمها الأقدس إلا ويقول (عليها السلام) .

(والامام ابن منظور) في لسان العرب ، كلما ذكر السيدة البتول يسلم عليها، ومنها : في مادة " قطب " قُطْبُ الرَّحى التي تَدُورُ حَوْلَها العُلْيا وفي حديث فاطمة عليها السلام وفي يدها أَثَرُ قُطْبِ الرَّحَى .. }

لطيفة :

إنّ عدد المسلمين اليوم يزيد على (٢ مليار) وما من مسلم إلّا وهو يصلّي على أهل البيت في كلّ يوم على الأقل عشر مرات في الصّلوات الخمس، فسيكون عدد الصلوات على مولاتنا عليها السّلام تزيد على (٢٠ مليار صلاة في اليوم) وإن قسمناها على عدد ثواني في اليوم سيكون الناتج حوالي (٢٠٠ ألف صلاة في الثانيّة) .

ومعنى هذا أنّ الأمّة تهدي (مئتي ألف تحيّة) للسيّدة الزهراء في الثّانيّة الواحدة، والسيّدة الزهراء ترد عليهم السّلام بروحها الطّاهرة، فتتجلّى على الأمّة بألوف من البركات والنّفحات، فهل من مستشعر لهذا !.

الإقتداء بها (عليها السّلام)

ومن واجبات مولاتنا الطّاهرة علينا، أن نشهدها قدوة لنا ولنسائنا، في سمتها الظّاهر والباطن، لاسيّما في هذا الزمن الذي تاهت فيه بناتنا مع الموضة والفن، فلا بدّ أن نجدد لهن الصّلة بسيّدة نساء الكون (عليها السّلام).

وما ذلك إلّا بعد أن يتعشّقنها فتصير حركاتهن وسكناتهن على خطاها، فإن كانت البنت إسمها على إسم الزّهراء، وهي تنبض بأشواق الزّهراء، وتتعبّد على مسلك الزّهراء، فلا شك أنّها ستكوّن لنا بيتا فاطميّا، ينتج لنا أبناء على قدم الحسنين، وبنات على سمت الزّينبين عليهم السّلام.

نافلة الولاء لها

ثمّ بعد ذلك لا غاية للتنقّل في ميدان الولاء، فإذا خالط حبّ الزّهراء شرايين فؤادك، فلا تستفت أحدا، واستفت قلبك ودعه يملي عليك من شجونه، وعندها ستدرك ما الذي جعل المحبين يلهجون بذكراها، والصّلاة عليها، ومدحها، والتّوسّل بها، وزيارتها، والنّصيحة لها ..

فلإن كان الأدب الماجن أشاع حبّ ومدح ليلى العامريّة، فإنّ الأدب الطّاهر لا يرضى إلّا بحب فاطمة المحمّديّة، وهذا هو نهج ساداتنا الصّالحين .

علما أنّه لم توجد إمرأة مدحت، أو ودّت في القلوب الطّاهرة، أو ألّفت في مناقبها التّصانيف، مثل السيّدة الزّهراء (عليها السّلام) .

ولاء السلف لها

عَنِ الشَّعْبِيِّ رحمه الله قَالَ: لَمَّا مَرِضَتْ فَاطِمَةُ، أَتَاهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهَا فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا فَاطِمَةُ هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكِ، فَقَالَتْ:

أَتُحِبُّ أَنْ آذَنَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَأَذِنَتْ لَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَتَرَضَّاهَا، وَقَالَ: وَاللهِ مَا تَرَكْتُ الدَّارَ وَالْمَالَ وَالْأَهْلَ وَالْعَشِيرَةَ إِلَّا لِابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ ﷺ وَمَرْضَاتِكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، ثُمَّ تَرَضَّاهَا حَتَّى رَضِيَتْ[1]

وروى أسلم أن عمر بن الخطاب دخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال : يا فاطمة والله ما رأيت أحدا أحب إلى رسول الله ﷺ منك والله ما كان أحد من الناس بعد أبيك أحب إلي منك . " الحاكم "

ولمّا رجع سيّدنا بلال من الشّام بعدما رأى الحبيب ﷺ في المنام يعاتبه على الجفوة، فلما انتهى إلى المدينة المنوّرة تلقاه الناس بخبر موت فاطمة (عليها السّلام) فصاح وقال بضعة النبيﷺ ما أسرع ما لقيت بالنبي ﷺ.[2]

وعن المسور بن مخرمة أنه بعث إليه حسن بن الحسن يخطب ابنته، فلقيه فحمد المسور الله - عز وجل - وأثنى عليه وقال : أما بعد فما من نسب ولا سبب ولا صهر أحب إلي من نسبكم وصهركم ، ولكن رسول الله - ﷺ- قال " : فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها وإن الأنساب يوم القيامة تنقطع إلا نسبي وسببي وصهري . " وعندك ابنته ولو زوجتك لقبضها ذلك ، فانطلق عاذرا.[3]

---

[1] البيهقي في الدلائل

[2] تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس

[3] أخرجه الإمام أحمد .

قال الحافظ الحاكم حَدَّثَنَا عبيد العجلي الحافظ، قال : كنت في مجلس عبد العزيز بن عبد الله العباسي، فحضر غلام الخليل، فذكروا فَاطِمَة (عليها السَّلام) فقال غلام الخليل : حَدَّثَنَا فلان عن فلان.. ، عن عَائِشَة رَضِيَ الله عَنْها قالت : قال رسول الله ﷺ : أطعمني جبريل عليه السلام عنقود عنب وقال : هذا من ثمر الجنة، فأكلته ووقعت على خديجة، فأتت بفَاطِمَة، فما لثمت فَاطِمَة قط، إلاّ ذقت طعم ذلك العنب من فيها .

قال عبد العزيز : أشهد لا أكتب هذا الحديث إلا وأنا قائم في ورق بيضاوي، بماء الذهب، فقام وكتب الحديث بماء الذهب، ثم قعد .[1]

وَدخل سيّدنا عبد الله المحض (عليه السّلام) وَهُوَ حَدِيث السّن، على الخليفة عمر بن عبد الْعَزِيز (رحمه الله)، فَرفع عمر مَجْلِسه وَأَقْبل عَلَيْهِ، فلامه قومه، فَقَالَ إِنّ الثِّقَة حَدثنِي حَتَّى كَأَنِّي أسمعهُ من فِي رَسُول الله ﷺ : (إِنَّمَا فَاطِمَة بضعَة مني يسرني مَا يسرها) وَأَنا أعلم أَن فَاطِمَة لَو كَانَت حَيَّة لسرها مَا فعلت بابنها .[2]

---

[1] رواه الحاكم النيسابوري

[2] الصّواعق المحرقة . للإمام ابن حجر الهيثمي . رحمه الله تعالى .

خاتمة

هذا وتبقى لمولاتنا الزهراء (عليها السّلام) من وراء كلّ الإعتبارات والحيثيات سريرة محمّديّة ربانيّة، لا يشاركها في مشربها أحد، فكلّ من عبّر عنها فإنّما هو على حدّ إدراكه، لا على ماهيّة كنهها المكنون المصون .
فخصوصيتها لم تبتدء هنا، حتّى تختم هنا، بل هي منذ العهد الرّوحاني الأوّل في مواصلات نبويّة، ومجاذبات قدسيّة، وإلى الآن لم تزل تعرج في معيّة أبيها العظيم ﷺ بلا حدود ولا قيود .

فلعمري بأيّ لسان سنترجم لتلك الأسرار الأزليّة، وإذا كان الفتح بالمعاينة المحمّديّة لن ينال إلّا بعد قطع ثلاثة آلاف مقام، وذلك تضيق عنه الأقلام والأفهام، وهو يعتبر أوّل قدم فاطمي، فكيف بما وراءه من الفتوحات الأحمديّة، والتحققات الرّحمانيّة، فستنتهي الأعداد دون غايتها القعساء .

زهــراءُ يا عَــذْراءُ ياحَــوراءُ — أنــتِ مُــرادِي والــورى وَراءُ
يانُزهَــةَ الجَنــانِ بالوِجْــدانِ — يا زَهْــرَةَ الجِنــانِ والكُثبــانِ
ياغُــرَّةَ الأمْجــادِ مــا أعْــلاكِ — تَعالى مَـن علـى العُـلا أعْـلاكِ
أنــتِ اليَتِيْمَــةُ مَــدى الدُّهــورِ — فَرِيــدَةُ الــوُرُودِ والصُّــدُورِ
حَرِيمَــةُ المَخــادِعِ العِندِيَّــه — حَمَامَــةُ المَجــامِعِ الحَمْدِيَّــه

لازِمَـــةُ الخُـــدورِ والبطنـــانِ مَرْقُومَـــــةٌ بِسُـــوَرِ القُـــرآنِ
بُـشرى لنـا بِهـا بَـنِي الإمـكانِ فإنّهـــا كَلِمـــةُ الـــرّحمنِ
فيـا لَهـا مِـن تُحفَـةٍ وَدِيعَـه صِـبْغَةُ تِـلك القُـدْرَةِ البَّدِيعَـه
لا غَـرْوَ مِنهـا أنْ زَهَى رُباهـا ومَـن دَرى مَنْـذا الّذِي رَبّاهـا
رَبّاهـا رَبُّ القُـدسِ والجـلالَهْ عـلى مِهـادِ العَـزْمِ والرّسـالَهْ
فَرَضَـعَتْ ولَـم تَـزَلْ بالعَـينِ تُسْـقَى الأنا ولاتَ حِـينَ بَـينِ
تُسَـبِّحُ الآحـادَ بالمَحامِـدْ لِتَمْـزُجَ الشُّـهودَ بالمحاتِـدْ
تَسْـبَحُ في النُّـونِ مِـن الآزالِ لِتَقْتَــنِي نَفـائِسَ الـلآلي
كأسٌ لَهـا مِـن خَمْـرِهِ المكْنُـونِ عُصـارَةُ العُيُـونِ بالبُّطُـونِ
عـادَت عـلى الأمـلاكِ بالصُبابَهْ فهـامُوا حَـولَ العَـرشِ بالصَبابَهْ
إذًا فَمَـا أدراكَ مـا العُيـونُ حيـثُ الجُنُـونُ حَيثُمَـا الكُمُـونُ
تاجُ البَتُـولِ غايَـةُ الكَـمالِ مُرَصَّـعٌ بالعِـزِّ والجَمَـالِ
يَبْهَـرُ لُـبَّ الأفْـقِ بالأنْـوارِ يُـشْرِقُ كالنّهـارِ بالأسْحـارِ
يَتِيـهُ فِيهـا الحُـبُّ والغَـرام بِنـتُ العُـلى يَعْشِـقُها الكِـرامُ
إذا تَجَلّـتْ طاشَـتِ الألبـابُ وَقُـدَّتِ القُلُـوبُ لا الثِيّـابُ
فَغُـضَ طَرْفَـكَ عَـنِ الأغْيـارِ وكَحِّـلِ الفُـؤادَ بالأسْرارِ
وأسْـكِرِ الوِجْـدانَ بالكِفـاحِ وزَمِّـلِ الأرْواحَ بالأفْـراحِ
وسَرْمِـدِ الأسْمـارَ بالأسْحـارِ ورَتِّـلِ الـوَلاءَ بالأشْـعارِ
فهـاهُو الجَمـالُ كَـبَّرَ بِهـا وخَـرَّ سـاجِدًا عـلى أعْتابِهـا

وفي الختام، ماهذه إلّا إطلالة من متشوّف متشوّق إلى فضاء الأنوار، وهي أوّل قدم في مسلك التّعرف على مولاتي الزّهراء (عليها السّلام) .
أقدّمها بين يدي نجواي لسيّدتي البتول الطّاهرة، وأرجوا بها أن تقبلني ثمّ تتقبّلها منّي، وأَمَلي أن تصادف قلوبا لهفانة مثلي، فتروي غليلهم بالوجدان والعرفان، وتبعث منهم همّة الخدمة لجنابها الشّريف .

فإنّ أسأت فمن جهلي وقصوري، فالعفو والغفران، وإن أحسنت فالمنّة لله ورسوله ﷺ، ثمّ لأئمّتنا من العلماء والعارفين، وما أنا إلّا جامع لما فرّقوه، أو مفصّل لما أجملوه، والله ورسوله أعلم وأحكم، وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمّد مفتاح كلّ خير، ومغلاق كلّ شرّ، وعلى آله الطيّبين وصحابته الأكرمين، وسلّم تسليما كثيرا، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين .

الفهرس